

الكتاب الثاني من تاريخ الرومان

١- لندع روايتي عن أعمال الامبراطور جون تتوقف هناك، وكان الامبراطور مانويل الذي تسلم الصولجان مايزال شاباً، قد بدأت لحيته بالظهور، ولم يكن هيباً من تحمل أعباء السلطة، كما انه لم يسمح لأي شيء أن يكون متراخياً، وبما أن أخاه اسحق كان آنذاك في بينزطة، راودت الحشود شكوك، انه لن يتمكن عن إحداث ثورة، وحيث انه كان بطبيعته ميالاً للخصام، تحركه الانفعالات وتقوده، فإنه لا بد وأن يجد مسوغاً يتمسك به من أجل الثورة، ومع هذا لم يول مانويل ذلك أدنى اهتمام، فقد مكث مدة ثلاثين يوماً كاملة في ذلك المكان بعد موت أبيه، ولم يغادره حتى أكمل بشكل لائق الطقوس المتعلقة بأبيه (وذلك بالاضافة إلى أشياء أخرى منها تأسيس دير في البقعة التي أسلم فيها روحه)، وأعد مايلزم من إجراءات أمنية بما يخص شؤون كليكية.

وكان قبل ذلك، أي بينما كان الامبراطور جون مايزال حياً، كان الانطاكيون قد شرعوا بالتملص من سلطته، وقد بعثوا إلى الامبراطور مانويل يطلبون منه مغادرة حدود الأراضي التي أعلنوا أنها تعود بملكيتها إلى مدينتهم، وهي الآن متملكة بالقوة وبشكل غير عادل من قبل الرومان، ولقد كان هذا ماقالوه غير ان الامبراطور تصدى لهم وأجابهم قائلاً مايلي في دفاعه:

«من الواضح لكل انسان، أيها الرسل، ان الانطاكيين لم يعانون من أي ضرر صدر عنا، وإذا سرق الانسان شيئاً ما من الآخرين، عندها من العدل أن يعيد إلى الآخرين ممتلكاتهم، وعلى هذا لماذا لم تتخلوا عن

انطاكية للرومان من قبل، بل استوليتهم عليها بالعنف وسلبتموها من أبي؟ ألم يستول عليها الترك أولاً عندما كانت مملوكة من قبلنا، ثم ما هذا الذي تطلبون تسلم ملكيته منا؟ ألا تطلبون مدينة انطاكية؟ إنها أولاً كانت مملوكة من قبل دولتنا (١)، وإذا كنتم لاتستحون من خرق اتفاقاتكم، لماذا أتيتم لتتهمونا بالاعتداء على حقوقكم، في حين نحن الذين ينبغي أن نطالب بتصحيح الأمور منكم؟ لكن ستكون هناك فرصة مناسبة لعرض مانحن بصدده من مسائل، والآن أمركم بمغادرة ماليس عائداً إليكم، وإنني سأزيد — ولن أنقص — ماوصل إلى يدي من أبي».

لقد كان هذا ماقاله للرسل. وحمل جثة أبيه على كتفه، وقام يعاونه النبلاء بأخذها بوساطة مسيرة، إلى السفن التي كانت متوقفة في نهر پيراموس Pyramos [سيحان]، وكانت هذه السفن ستعبر من خلال موبسوستيا Mopsuestia ومن ثم تأخذ طريقها إلى البحر، وعندما انطلقت الدرmonيات [سفن حربية] إلى البحر من هناك، أمر بإزالة المعسكر وتولى بنفسه قيادة الجيش، وزحف غير هياب في وسط أراضي الترك (٢)، واندھش الترك رعباً، وكانوا معجبين بسرعة اندفاعه الزائدة، ولذلك لم يتجرأوا على التصدي للرومان، وسار الرومان وسط بلاد أجنبية كما ولو أنهم كانوا يعبرون أراضيهم الخاصة بهم، ولم يمض وقت طويل حتى وصل إلى الأراضي الرومانية، ووصلت السفن التي حملت بقايا الامبراطور إلى أرض بيزنطة، وخرج أعيان (٣) الرومان لاستقبالها بشكل رائع، ونقلوا هذه البقايا إلى الدير المقدس، الذي — كما سلف القول — قد أقامته الامبراطورة ايرين من قبل على اسم البانتوكراتور Pantokrator.

وكان الامبراطور مانويل مشغولاً برحلة العودة، حيث انه لم يكن يعلم شيئاً فيما يتعلق بالسيياتوكراتور [أخيه اسحق]، فإن الذين عهد إليهم

من قبل بشؤون الامبراطورية قد أوقعوه في شراكم بخداعه، وذلك على أساس انه كان يخطط لاغتصاب العرش، ولذلك سجنوه في الأفنية الخاصة بالبانتوكراتور، ولم تحصل فائدة من هذه الخطة وأخفقت، وحمل اسحق مشاعر سيئة نحو بعض الذين كانوا مع مانويل، ولاسيما نحو الذين كانوا يديرون المراكز السامية، وكان من الممكن أن يقوم بالحق الضرر بأهليهم وحواشيهم في بيزنطة، وفكر مانويل في الحقيقة في كيفية منعه ببراعة من تلك المحاولة، وهكذا ارتأى أن من الصواب ارسال مراسيم إلى بيزنطة يتهم فيها أولئك الرجال [مؤيدي مانويل] بتهمة الخيانة، ولذلك عاقبهم بمصادرة أموالهم وممتلكاتهم، وخيل إليه انه بهذه الطريقة سيفترض السيباتوكراتور أن هؤلاء الرجال قد تآمروا لصالحه هو ذاته كامبراطور، ولهذا سيرعى مصالحهم بشكل أفضل، حتى يكون قادراً على كسبهم ونيل مساعدتهم.

٢- لكن درجات العقلانية جاءت كلها بلا محصلات مغيرة ، وبدون حاجة إلى مواجهة تقديرات الناس، لأن مانويل كان قد نوى هذه الأشياء، وقام بالكشف عن خطته للذين من حوله، وبالنسبة لكل من أخيه اسحق، وعمه، كان كما أسلفنا القول أولهما محافظ عليه ومحروس داخل الدير، وكان الآخر مقيداً بقيود حديدية، وكان عم الامبراطور مسجون من قبل أبيه، أعني أنه كان مسجوناً بأمر من جون في هرقلية [ايرغلي] (٤) البنطشية، وكان اعتاد أن يعيش هناك بشكل لائق، وذلك بعدما كان قد نفي من قبل أخيه الامبراطور عندما كان على قيد الحياة، وبسبب مؤامراته ورغباته بالعرش ما برح ينقل من هذا المكان إلى ذلك، إلى أن وصل إلى حالة التعاسة هذه بالسجن بقرار من قبل الذين كانوا مسؤولين آنذاك عن بيزنطة، وذلك بعدما عرفوا أنه ينوي الثورة مجدداً، ولكن — كما قلت — جعلت الحكمة طريق الامبراطور إلى السلطة ليناً، فما ان وصل مانويل إلى بيزنطة، وعلم بهذه الأشياء التي تخص

السيياتوكراتور حتى بادر على الفور إلى استدعاء أخيه، فعانقه وحياه بطريقة أخوية، ثم استدعى عمه من المنفى، وألغى التهم التي كان أبوه [جون] قد عاقبه من أجلها من قبل بالنفي، وطلب منه المسامحة، ثم بعدما أعطى الجيش المال، أرسله إلى الوطن، ومنح كل بيت في بيزنطة قطعتين من الذهب.

وبسبب أن القسطنطينية كانت بلا بطريق، رفع إلى عرش البطرقية ميخائيل الثاني كوركواس، الذي كان راعياً لدير قائم على الجزيرة التي يدعونها أوكسيا Oxeia [«شارب» سيوري أدا الحالية] وذلك اعتماداً على مظهرها (٥٥)، وامتلك حسياً قالوا ثقافة عامة بسيطة، وتعليماً دنيوياً برأس اصبعه، ولكن بالنسبة لأوليات الأخلاق ودراسة الكتابات المقدسة لم يكن أدنى من أحد من المرموقين بالمعرفة في تلك المنطقة، وببيديه توج فيما بعد مانويل بالتاج الامبراطوري في الكنيسة، ثم إنه بعدما قدم مائة وزنة من النقود الذهبية ووضعها على المذبح، غادر مخلفاً الشهرة بكرمه، والتعظيم في فم كل انسان، وأمر منذ ذلك الحين فصاعداً بمبلغ سنوي قدره مائتي وزنة من الفضة من القصر إلى رجال الدين، وقد دعوا هذا: المال الاضافي.

٣- هكذا كانت بداياته في المنصب، وبما انه كان متشوقاً للانتقام من ريموند أمير انطاكية، بسبب جرائمه التي اقترفها ضدّ أبيه (ولأنه لم يقيم بعد بفرض الغرامات المستحقة عليه، ولأنه كان بالطبع مشغولاً بأمر أعاق زحفه) أرسل قوة ضده بالبر والبحر [حوالي ١١٤٤] (٦)، وقاد هذه القوة أندرونيكوس وجون اللذان أرجعا نسيبهما إلى الكونتو ستيفانيو Kontostephanoi ، وكان معها برسق (٧) الذي كان ضليعاً في فن الحرب، وقاد القوة البحرية ديمتريوس الذي كنيته براناس وعندما وصل برسق والكونتوستيفانيونين حدود كليكية، استطاعوا خلال مدة وجيزة أن يستردوا الحصون التي كان الانطاكيون قد سلبوها من الرومان،

ودخلوا في مواجهات مع ريموند فأرغموه على التراجع، وقتلوا عدداً كبيراً من أتباعه، لكن كيف حدث ذلك؟ هذا ما سأبينه لكم:

عندما استولى الرومان على الحصون المذكورة، اقتربوا من مدينة انطاكية بلا مقاومة، معاملين كل ما وجدوه أمامهم بمثابة غنائم من المسيحيين (٨)، وعندما رأى ريموند الرومان يقتربون، بقي هادئاً خلف الأسوار، وبعدما قاموا بالاستعداد زحفوا من هناك (لأن ما من أحد تقدم ضدهم) ثم قام هو سراً باتباعهم عازماً على مهاجمتهم من الخلف، ووصل الرومان إلى بقعة رأوها مناسبة لامضاء الليل، فأقاموا معسكرهم هناك، وبعدما مركز ريموند جيشه في مكان مناسب، زحف مع عدد صغير من رجاله ليتجسس ويستطلع أخبار العدو، ولم ينج اقتربه من ملاحظة الرومان، فقد تصدى له بعض الذين كانوا قد خرجوا لجمع المؤن والأسلاب، وكان ذلك غير بعيد عن المعسكر، ولذلك أسرعوا باخبار القادة، وبما أن الوقت كان ليلاً، أقاموا الحرس وانتظروا، وعندما لم يكن اليوم التالي قد جاء، وقبل انبلاج الفجر، عادوا، وخططوا للانقضاض على الذين كانوا ما يزالون معسكرين مع ريموند، لكن ريموند لم يكن بالانسان غير الحذر، ففي أول الفجر، وبعدما عمل ماراه لائقاً مع أتباعه، تركهم هناك، وزحف هو للاستطلاع، ودون أن يتوقع سقط أمام الرومان، فأدار ظهره وفرّ، وبعث إلى بقية جيشه يأمرهم بالانطلاق من هناك بأقصى سرعة ممكنة، غير أن القوات الرومانية وصلت بسرعة مساوية، وطاردتهم وأوقعت بهم مذبحه كبيرة، واستمرت المطاردة حتى أبواب انطاكية، وأحاطوا بالعدو بصعوبة حتى أن ريموند نفسه دخل إلى المدينة خلال الليل.

وما ان أنجز الذين كانوا مع برسق كل هذا ضد ريموند حتى انطلقوا نحو كليكية، هذا ووصل آنذاك ديمتريوس براناس مع الاسطول فنهب المنطقة المحاذية للبحر، وأخذ حشداً كبيراً من الرجال أسرى، وأحرق

كثيراً من السفن المحلية التي كانت راسية عند الشاطيء، حتى أن واحداً كان يجمع الأموال العامة لهم وقع أسيراً بأيدي الرومان، وعندما سمع ريموند بهذا، جاء إلى هناك وهو عظيم الحقن، لكنه عندما لاحظ أن السفن الرومانية قد أقلعت من هناك، عاد خائباً، وحيث أن البحر لم يكن موافقاً للرومان، فانهم احتاجوا إلى عشرة أيام للملاحة في تلك المنطقة، وعندما قلت لديهم المياه، تقدموا نحو الساحل بشكل غير متوقع، ونزلوا إلى اليابسة فهزموا العدو، ونهبوا اثنين من الحصون الساحلية، وملاؤا سفنهم بالقدر الممكن من الخمر وماء النهر، ثم واجهوا ريحاً طيبة فأبحروا نحو قبرص.

وأرغمت هذه النوازل ريموند على الرحيل إلى بيزنطة [١١٤٥]، وعندما وصل إلى عند الامبراطور لم يوله في البداية أدنى انتباه، وذلك حتى استجار بضريح أبيه الامبراطور، وهنا كسب عفوه، ثم أصبح ريموند واحداً من أتباعه (٩).

٤- وتزوج في هذه الأونة [كانون الثاني ١١٤٦] الامبراطور من [بيرثا—] ايرين [السولزباكية Sulzback] التي كانت مخطوبة له قبل أن يكون امبراطوراً، وهي فتاة قريبة من الملوك، ولم تكن أدنى من أي فتاة أخرى في محاسن الأخلاق القويمة والروح (١٠)، وفيما يلي ماروي عنها:

عندما وصلت للمرة الأولى إلى بيزنطة [١١٤٢] التقى بها عدد من النساء النبيلات المتميزات، وكذلك الفتاة التي كانت متزوجة من الامبراطور ألكسيوس [أكبر أبناء جون] وكانت [بيرثا] مرتدية رداء من الكتان، وبالنسبة للأخرى فقد كانت ترتدي ثوباً أرجوانياً موشى بالذهب، هذا وجعلها لون ثوبها الأرجواني الداكن تلاحظ من قبل القادمة الجديدة، فاستوضحت على الفور من الواقفات هناك سائلة:

من هي هذه الراهبة التي تتكلم بشكل فيه أهبة عظيمة، وبدا أن هذه الإشارة ليست طيبة أبداً بالنسبة للمستمعين، ولقد جاءت الخاتمة مسرعة ليس بعد وقت طويل (١١).

وشغلت منطقة آسيا القائمة عبر المضائق [البوسفور] الامبراطور، الذي كان يبحث عن كيفية جعل حدود بيثينيا بإمكانها أن تتوقف عن كونها نقاط دخول بالنسبة لأمة الترك، ذلك انه بحكم أن التحصينات التي كانت تصد فيما مضى أعمال حرق البرابرة قد أهملت رعايتها، فقد غدت تلك المناطق هناك منافذ سهلة لوصول الترك، لكن في السنوات الأخيرة بات هذا أكثر أعمال الامبراطور الطموحة فائدة، حيث أقام عدداً من المدن هناك، وقرر في هذه اللحظة انشاء حصن في المنطقة المعروفة باسم ميلانغيا Melangeia [أو ملاغنيا على سكاريا شرقي ازيق] (١٢)، وبينما كان هذا العمل جارياً، روي له أن مرضاً متقدماً يوحى انه وباء لا يمكن التغلب عليه قد أصاب ماريا الابنة الأكبر للامبراطور جون، التي كان القيصر جون روجر (١٣) قد تزوجها وبعدها أقام الامبراطور مافيه الكفاية في المكان لإكمال الأعمال، أخذ الطريق نحو بيزنطة.

لكن في الوقت نفسه كانت قضت قدرها، وكانت سيدة رفيعة النفس كثيراً، كما وكانت ذات مظهر معبر تماماً. وبوصولي إلى هذه النقطة في روايتي، جئت إلى ذكريات تتعلق بأعمال هذه المرأة التي ماتزال تستحق الاعجاب، لأنهم قالوا إن القيصر روجرنا ببصره على الامبراطورية، في الساعة التي تلت وفاة الامبراطور جون، فقبل أن تستقبل القسطنطينية الامبراطور الجديد، أحاط نفسه بعدد كبير من الميليشيات الأخرى، وريح بشكل خاص إلى جانبه رجلاً ايطالياً، وكان من أبناء جلدته من جانب أبيه، وذلك مع أتباعه الذين بلغ عددهم أربعمئة، وكان هذا الايطالي متميزاً ومشهوراً بنسبه، إنه روبرت أمير كابوا Capua ، وهي

مدينة ايطالية كثيرة السكان ومزدهرة، وكانت مناسبة اقامته في بيزنطة كما يلي:

كان روجر الثالث، الذي كان وقتذاك الطاغية المتصرف بصقلية، والذي سنقدم عنه مادة كبيرة في الكتب التالية عندما سنكتب عن الحروب الايطالية، كان شديد الرغبة في تملك امارة كابوا، وضغط بالحرب كثيراً على أميرها، الذي عندما قهر من قبل، أخذ الطريق إلى بيزنطة، وبناء عليه لقد كان هذا ماصنعه القيصر جون روجر، وبعد جهود مضنية اقتنعت زوجته انه مصرّ ومتشوق إلى اغتصاب العرش، ولن يتزحزح عن غايته مهما حدث، فاستدعت إليها الذين كانوا مسؤولين عن الشؤون العامة، وأخبرتهم بالقضية، وقالت لهم:

«إما أن تسلموا أنتم لي زوجي، أو تتولون القيام بما يحفظ المملكة لأخي»، ولقد كان هذا ماقالته، لكن لسبب يبدو تعلق ببعض الأشغال أخذوا القيصر بالخديعة تماماً، وحملوه إلى إحدى الضواحي قرب بيزنطة، وعندما وصلوا إلى ذلك المكان، تركوه يقيم هناك ثم عادوا إلى المدينة.

٥- هكذا كانت ماريان، وعندما روي خبر مرضها إلى الامبراطور، توجه إلى بيزنطة، وعسكر بعد وقت قصير [١١٤٦] في السهول القريبة من رينداكوس Rhyndakos [أورهانلي] حيث وجد حصناً كان الامبراطور جون قد أنشأه منذ وقت قريب، وكان اسمه لوباديون Lo-padion [أولبات قرب قراكابي]، فهذا ما أطلقه عليه العامة (١٤)، وجمع هناك جيشاً، لأنه نوى غزو الأراضي التركية، ذلك أن الترك كانوا في الوقت ذاته قد حرقوا همدنتهم مع الرومان، ونهبوا براكانا Prakana واستولوا عليها، وهي مدينة ايزورية تقع إلى الغرب من سلفكي (١٥) Silifke، وأنزلوا كثيراً من الأضرار الأحرى بالرومان، وبعدما استعد بقدر الامكان، انطلق من هناك، وتقدم مسرعاً،

عاقداً العزم على تدميرهم من الشباب فصاعداً، وذلك عندما ينقض عليهم بشكل مفاجيء، ويأخذهم على حين غرة، ومهما يكن من أمر، لم يخفق تماماً بخططه، وفي الحقيقة لم يستخدم يديه في ذلك الصراع، لأنه بعدما عاث بشكل سريع بميسيان أولييموس Mysian olympus [أولوداغ] ووصل حتى بيثيكاس Pithekas (١٦)، حيث أنشأ حصناً قوياً، زحف أثناء الليل خلال الجبال هناك، التي هي عالية لابل بالحقيقة شاهقة (١٧)، ونامية أكثر من اللازم، وعندما امتلأ رأسه من الضباب المنبعث فوق الأشجار، سقط فجأة، وكان غير قادر على النهوض ثانية، وقد بقي حتى حوالي منتصف الليل بدون وعي، غير أنه تحسن بعد ذلك قليلاً، واستعاد وعية في اليوم التالي، ومع ذلك بقي هادئاً، وأرسل شطراً مناسباً من الجيش، أرسله على كل حال مع القادة لتنفيذ واجباته، وعندما اصطدموا بقوات العدو على مقربة من هناك، تفوقوا عليه بالقتال، ولذلك استحوذوا على كميات هائلة من الغنائم، وعادوا من هناك مع دلائل النصر. ولقد كان هذا ما أنجزه الامبراطور.

وانقض الترك، الذين أعدوا حملة كبيرة، آنذاك على أراضي تراقية [بندتراقية في وسط غربي آسيا الصغرى]، ولم يكن هناك من يتصدى لهم (ذلك أن تيودور الذي كنيته كونتوستيفانوس Kontostephanos ، الذي أرسل لهذه الغاية إلى هناك من قبل الامبراطور، لم يكن قد تمكن من جمع جيش حتى يحافظ به عليه)، ومضى الترك ينهبون وصولاً حتى إحدى المناطق القريبة من البحر التي اسمها كلبيانون Kelbianon [وادي كيستر Csyster] (١٨)، وعادوا وهم يسوقون أمامهم أسلاباً كثيرة، وعندما سمع الامبراطور بهذا لم يستطع أن يجبس نفسه، فبعدها أجرى استعداداته بكل سرعة، وانطلق بسرعة وافية نحو قونية، قام باخبار السلطان (مسعود) صاحبها برسالة، وجاء نص الرسالة كما يلي:

«نحن نرغب أن تعلم أنك اقترفت أشياء أثارت هجومنا عليك، فأنت نفسك الذي سلبت منا براكانا Prakana، التي ليست عائدة إليك، وأنت نفسك أغرت مؤخراً على الأراضي الرومانية، كما أنك لم تتمنع عن المقاتلة بالطريقة نفسها مع يغني — بسان [بن دانشمند] (١٩)، الذي هو حليف الرومان، ومع عدد آخر كبير من المقدمين هناك، إنك رجل عاقل، وعليك أن تدرك أن الرومان لن يسمحوا لأنفسهم بالاغضاء عن هذا، وييقى، أنك ينبغي — بعون الرب — أن تدفع الغرامة لهذا مرات عديدة، وعليك إما أن تتوقف عن هذه الحماقات، أو أن تكون مستعداً بالحال لمقاومة الرومان»، هكذا على هذا الشكل كانت الرسالة، وبعدها قرأ السلطان الرسالة أجاب كما يلي: «تسلمنا رسالتك أيها الامبراطور العظيم، وقد أعدنا أنفسنا حسبها أمرت، ثم يتوجب عليك أن تأمر زحفك ألا يؤخرنا بطول الاتصالات، وييقى فيما يتعلق بسير الأمور، فتلك ستكون مسؤولية الله ومسؤوليتنا، ولتكن فيلوميلون Philomilion [أق شهر الحالية] المكان الذي ستتصادم به، لأننا معسكرون هناك في الوقت الحاضر».

على هذه الشاكلة، وبصورة عامة متدنية، ردّ السلطان على الامبراطور، وقد بقي السلطان مع الجزء الأكبر من الجيش التركي هناك في فيلوميلون، حيث كان معسكراً من قبل، وكان قد انتقى بعضاً من جيشه، وأرسل هذا البعض لاعتراض تقدم الرومان، واشتبك الترك لوقت قصير مع الامبراطور، وكان ذلك قرب مدينة أكرنوس Akrounos [أفيون — قراحصار الحالية]، وكان الامبراطور معسكراً في مكان يدعى تل كالوغرايا Kalograia ، وعانى الترك من هزيمة ساحقة، وعادوا مثل اللاجئين إلى السلطان، وكان بين الذين باتوا طعمة للسيف الحيري (٢٠)، وكانوا مشهورين بين الأتراك، وأصاب الرعب السلطان، بسبب الفاجعة، ولذلك لم يبق في

المكان لتحضير أي شيء، أو التحضير لأي شيء ضروري، بل غادر فاراً من هناك، ولدى معرفة الامبراطور بذلك عزم على الاستهزاء به، لتهوره السالف ولخذلانه وجبنه الكامل فيما بعد، فكتب إليه كما يلي:

«عليك أن تفهم أيها السيد الشريف التالي جيداً: إنه مهما بلغت درجة عارك بسبب جبنك، لقد ازددت عاراً بسبب قحتك التي تقدمت ذلك، ثم إن ذلك لم يمكن رحضه من قبل الآخرين في القتال، وحيث بدا وكأنك نسيت تماماً فخارك المبكر، ولم تقم وزناً لما كتبت مؤخراً إلى امبراطوريتنا [بيزنطة التي هي مصدر جلالتنا] بل هربت إلى حيث لأدري، انتبه إننا نذكرك: إذا كنت لن تنتظر قدومنا إلى فيلوميلون حسبما أعلمتنا يبقى على ذاتك الشريفة والكريمة أن تسرع وتتجاوز دناءة جبنك». مثل هذه الكلمات كانت برسالته.

ووصل الامبراطور إلى فيلوميلون، واستولى عليها عنوة، وأحرقها جميعاً، وقد وجد هناك بعض الرومان الذين كانوا في الاعتقال منذ وقت طويل، فحرر البؤساء هؤلاء من أغلالهم، وسمح لهم أن يروا النور والحرية، وكان الترك عندما اقترب الامبراطور أولاً واثقين من قوتهم، فقرروا عدم نقل هؤلاء الرومان إلى أي مكان آخر، لكن عندما أرغمهم الخوف، ليس فقط لم يعيروا الأسرى الرومان أي انتباه، بل عدوا أن ممتلكاتهم أقل قيمة من أن ينظروا إليها.

وعندما أحضرت الرسالة إلى السلطان، إما انه شعر بالارباك، أو كان يخطط لشيء آخر، لذلك تراجع، ووصل بسرعة إلى مكان يدعى بالتركية أندرخان (٢١)، وعسكر هناك وعندما سمع الامبراطور بهذا قام على الفور بصف جيشه، وعبر مدينة أدرنة (لأن ذلك الاسم انتقل إلى ليكونيا - Ly-konia نفسها) وعسكر في مكان يدعى غيتا Gaita [أكيت] (٢٢)، وعبأ في اليوم التالي قواته [لأن الجيشين كانا معسكرين على

مقربة] وزحف، وعندما اقترب من الترك، بدأ القتال، ولم يستطع الترك الصمود أمام هجوم الرومان، فانعطفوا للتراجع، وطاردهم البيزنطيون وقتلوا بعضهم وأخذوا بعضهم الآخر أسرى.

ولم يتوقف السلطان عن الفرار حتى وصل في فوضى إلى قونية، فاندفع إلى داخلها واعتصم خلف أسوارها، وما ان شعر بالسلامة حتى تصور خطة كما يلي: هو لم يتجرأ على البقاء في الداخل، خشية أن يصبح محاطاً به من قبل المحاصرين الرومان، فذلك سيجعله عاجزاً عن الظهور، وبشكل عام، وبدون أن يعرف إلى أي نقطة من الحظ ستصل نهاية الحرب إليها، فقد ارتأى انه غير مفيد له أن يعاق في مكان محاصر، ولهذا وضع قسماً من جيشه شحنة في المدينة، ثم شطر المتبقي إلى شطرين، حيث مركز أحد الشطرين على السفوح خلف المدينة، وأبقى الشطر الآخر معه حيث قاده صاعداً نحو اليمين، فقد اعتمد بشكل خاص على قوة الجبل الممتد بين قونية وحصن قبالة Kabalh (٢٣).

٦- وكان الترك على هذه الوضعية، وعندما وصل الامبراطور إلى قبالة، كان متحمساً حماساً عظيماً، وشديد الرغبة في مهاجمة السلطان، ونظراً لأنه كان في البداية غير قادر على الفور معرفة أين يمكن أن يكون مسعود، تمهل قليلاً وتريث عن الهجوم، وبوساطة الخبرة العسكرية لاحظ أن مسعوداً كان يقود الفرقة المتمركزة على يمين المدينة، (لأن مانويل كان في هذه المسائل أبرع من أي واحد آخر) وقام على الفور بامسك حامل الراية، وسحبه بوساطة المقود، وأداره نحو تلك الفرقة، وعندما تردد الجيش الروماني، ونظر إلى الحركة بدهشة كبيرة، وتساءل لماذا عليه أن يرغب بالمغامرة بشكل غير حذق وضد مثل هذه القوة غير المتفوقة (لأن انعدام ظهور ذلك الجيش قد أدهشهم، وبناء عليه اعتقدوا أن هؤلاء هم مقدمة الفيلق الذي كان مع السلطان، والذي ربما كان مختفياً في مخابىء

الجل)، ولأن الرومان كانوا هكذا مندهشين، خفف الامبراطور من اندفاعه قليلاً وقال: «أيها الرومان لاتدعوا حيل البرابرة تحول قوة انتباهكم إلى خوف، وبما أنه هناك نقص في الرايات في الجيش المشاهد أمامنا، عليكم ألا تتخيلوا أن الرايات في مكان آخر مع قوة أخرى، لأنني لا أعتقد بوجود فرقة أخرى من العساكر قد بقيت للأتراك، وأن راياتهم قد وضعت بالخفاء فوق هناك في الأماكن الكثيفة، وذلك بغية اخافتنا بمظهر وجود حشود، عليكم ألا تتحاروا وتندهبوا أمام البربري لعدده، بل عليكم ازدرأء ضعفه، ولا يتعايش الصدق بشكل طبيعي مع التخيلات، وعلى كل حال إنني سأنتقل مع أكبر عدد من الأتباع للاشتباك معهم فوراً، وعليكم أنتم بعدما تنظموا صفوفكم أن تلحقوا بي مع بقية الجيش، خشية الوقوع في كائن العدو».

وما أن أنهى الامبراطور كلامه هذا، حتى اندفع للانقضاض على العدو، وتوضع هو نفسه على اليسار، لأن ذلك كان يواجه قلب جيش الأعداء، وحيث وجد أكبر عدد من خيرة الترك، واعتقد أن الترك فقدوا شجاعتهم أثناء سير القتال، فعندما رأوا سيوف الرومان اضطربت صفوفهم وتفرقوا في فوضى، وكل واحد كان راغباً في أن يكون أول الناجين من هناك، وراجت اشاعة أن السلطان كان موجوداً هناك، وأضاع الرومان وقتاً كبيراً بالانشغال في مطاردة الفارين وهكذا انشغلوا بهذا العمل.

أما بالنسبة للجيش الروماني الآخر الذي كان — كما قلنا — موجوداً في الساقة فقد زحف فوق أثناء زحفه بكائن غير متوقعة، فانعطف وأعطاهم ظهره، ثم قام الآخرون بالانقضاض عليهم، وأعني بهم الذين تشكلت منهم شحنة قونية، (فقد تشجع هؤلاء بسبب أن الامبراطور كان يقوم بعمليات المطاردة بعيداً عن قونية لذلك خرجوا مهاجمين) وفعل الشيء نفسه الترك الذين كانوا متمركزين على السفوح خلف المدينة،

وبدأ الرومان يتخبطون وتدب بين صفوفهم الفوضى، وما ان سمع الامبراطور بهذا حتى بادر بارسال قوة من حرسه إليهم، عبر أسرع الطرق وقادهم بيرهوجرجيوس Pyrrhogeorgios ، وكان رجلاً نشيطاً وفعالاً، وهو الذي سيشرّف فيما بعد برتبة أمين البلاط (٢٤)، وقادهم أيضاً كوروب Choaroup ، الذي كان من عبيد الامبراطور، وكان من الذين يرتدون الثياب الأرجوانية، ومجدداً كانت القوة المنهكة تماماً في وضع ليس أقلّ رعباً.

وقرر الامبراطور—الذي كان ذكياً جداً في ايجاد المحتاج إليه، وبارعاً في استنباط ما ينبغي صنعه— أن المسألة تحتاج إلى المهارة أكثر من القوة، فاستدعى واحداً من الجنود، واسمه بمبزيوتس Bempitziotes ، وأصله من أدرنة، وأمره أن يخلع خوذته من على رأسه، وأن يلوح بيده بها في الهواء في كل اتجاه من حوله، ليعلن للجيش ما يشبه أسر السلطان، وعندما أنجز هذا استردت القوات الرومانية شجاعته، ودفعت بالعدو إلى الخلف، هذا العدو الذي كان يضغط عليهم بشدة، فغالباً ماتت فوق هكذا خطة بارعة على قوى مضاعفة، ومهارة رجل واحد كانت أعظم قوة من عدد من الدروع.

ونظراً لحلول الظلام سريعاً، عسكروا هناك، وانطلقوا من هناك عند الفجر، وعسكروا قرب قونية، وبعدها أحاطوا بها، تصور مانويل انها بعيدة النوال، كما ان اشاعة راجت ذلك اليوم محذرة أن أمم الغرب، شرعت بحكم طباعها الموروثة عن أسلافها بالعصيان، وأنها ستقوم بغزو الأراضي الرومانية بكامل القوى، لذلك تخلّى الامبراطور عن الحصار، معتقداً انه يحتاج وقتاً أطول، واستعدادات أعظم مما كان لديه في تلك اللحظة، وبعدها نهب وخرّب تلك الأحواز، غادر من هناك (٢٥).

وروي انه بينما كان كان الجيش الروماني يعيثُ فساداً في قبور الأتراك

خارج المدينة وينبشها ويخرج أكبر عدد من الجثث منها، لم يرغب الامبراطور، على الرغم من ضغط اللحظة بالاساءة إلى مكانة أم السلطان، فأمر بحفظ رمادها وبعدم ذروه، وأعلن باختصار أنه يتوجب على الرجال العقلاء الاستحياء لدى فواجع النبلاء، وقام بكتابة رسالة لم تكن بعيدة عن اللطف، وأرسلها إلى زوجة السلطان، وقد جاء بالرسالة مايلي:

«نرغب إليك أن تعرفي أن ابن امبراطوريتنا (٢٦)، السلطان حي ومازال باقياً، ذلك انه فرّ من شدائد الحرب»، وكانت هي، على كل حال، قد أعدت حوالي الألفين من الأغنام وكميات كبيرة من الثيران، وأنواع أخرى كثيرة مما يؤكل، لتستقبل بهم الامبراطور وللترحيب به، لكن بما أن الجيش الروماني قام — كما سلف الذكر — باحراق أماكن السكن خارج المدينة، لم تنفذ مانوته. وهكذا كانت هذه المسألة.

وعندما شرع الامبراطور بالانسحاب، أرسل ثانية رسالة إلى السلطان، وقد جاء نصها كما يلي:

«لقد طلبناك مراراً، غير اننا لم نستطع التصادم معك، فقد فررت دوماً، وتلاشيت كما يتلاشى الظل، ولكي لانبدو كأننا نقاتل ظلالاً، نقوم الآن بالمغادرة، ونحن في طريقنا إلى الوطن، وسنعود إليك بالرييح باستعدادات أعظم، وعليك التنبه وعدم الفرار كلياً بطريقة غير لائقة بك».

٧- هكذا كانت الرسالة، ووصلت قوى كثيرة من الأتراك الذين سكنوا وراء قونية، ممن كانوا تحت حكم المرحوم ابن دانشمند (٢٧)، لقد وصلوا متحالفين مع السلطان، والتحقوا به، واعتماداً منه عليهم لم يرغب الآن بالفرار كما فعل من قبل، بل انه ما ان ضمّ صفوفه حتى سارع نحو قتال الرومان، الذين كانوا قد وصلوا إلى مكان اسمه بلسان

البرابرة زبريلزماني Tzibrelitzemani (٢٨)، وهو مكان كان الوصول إليه أصعب من أي مكان آخر، ليس فقط بالنسبة للرجال المنظمين على شكل صفوف، بل لم يكن من السهل الجواز به للمسافرين على شكل جماعات صغيرة، وكان الجيش يعاني من مصاعب جمّة حول المعسكر، لكن الامبراطور، مدفوعاً بحدّثة سنه، وبما انه لم يمض وقت طويل منذ اتخاذه زوجة، رغب في ذاته في تحقيق شيء ما خلال القتال، وذلك تماشياً مع عادات اللاتين، لأن اللاتيني الذي اتخذ زوجة منذ وقت قريب، إذا لم يظهر بمظهر النبل، لا يجلب نعمة عامة، ولذلك وضع في اثنين من الشعوب الجبلية من على يمينه وشماله جماعات على شكل كميين، وتألّف أول الكمائن من الذين كانوا أقرب الناس إليه نسباً، وكان بينهم أشد الناس لصوقاً به والذين تزوجوا من اخواته (٢٩)، وحوى الثاني على وحدتين عسكريتين، قادهما نيكولاس الذي كنيته أنجيلوس Angelus ، وكان رجلاً شجاعاً في العمل ومزوداً بكثير من الشجاعة، وأمرهما بالموث هناك هادئين حتى يرياه يقوم بالهجوم ضد العدو.

واستجاب على غير رضى لطلبات أخوه اسحق وجون [أكسوكوس Axouchos]، دمستق قوات الشرق والغرب (٣١)، فمضى معها إلى بقعة حيث رأى بعض الرومان ذاهبين على شكل جماعات لجمع الأعلاف، ووضع هناك سلاحه تحت ردايه خشية أن يعرف من قبل الترك نظراً لما تمتعوا به من سمات استطلاعية بارزة، وانتظر قدوم بعض الترك الذين قد يأتون لإحداث بعض الأضرار، لكن حيث مامن واحد منهم كان بادياً له في أي اتجاه، بعث فأحضر واحداً من جنود الرومان واسمه بوبكس (أبو بكر) (٣٢)، وكان تركي المولد، وامتلك شجاعة عظيمة ونشاطاً كبيراً، وأمره أن يتقدم، ويفتش بحذر علّه يرى أيّاً من الترك يقترب، وانطلق على هذا الأساس، وعاد بعد قليل ليؤكد انه لم ير أكثر

من ثمانية أتراك، وهنا ترك الامبراطور أتباعه في كمين، ومضى ومعه أخوه والدمستق نحوهم بأقصى سرعة ممكنة، وذلك بعدما أراهم أبو بكر الطريق، وغضب ختنه زوج أخته — الذي تمّ تجاوزه — غضباً شديداً، لأن كل واحد منهم، لابل هم جميعاً ربطوا أنفسهم وأوثقوها بأيمان مخيفة، قضت انهم سيلتحقون عن صدق بالامبراطور (الذي لم يرغب بذلك) ويساندوه في هذه المعركة، إذا كانت هناك معركة.

ولم يكن الامبراطور قد اشتبك مع الأتراك الذين شوهدوا، وقد تبين أن عددهم حوالي الثمانية عشر، وكان متشوقاً ومتحرقاً لقتالهم، لكن خشية منه أنهم ربما قد يهربون لأنهم كانوا مجهزين بشكل جيد، (وحيث انه كان مايزال واقفاً بعيداً عنهم لم يكن قادراً على الاشتباك بهم عن قرب) فقد بذل جهده كما يلي: أمر أبا بكر بالمضي حتى يكون قريباً جداً منهم، وعندما يرى انه اقترب منهم، يفرّ بكل ما أوتيه من قوة حتى يصبح قريباً منه، وهكذا فعل أبو بكر ما أمر به، وعندما أخذ البرابرة يطاردونه، هرب، ولم يهرب هروباً كاملاً من العدو، بل راوغه وأعطاه بعض الأمل في أسره، ثم قرّ، وبذلك استدرجهم إلى قرب الامبراطور.

ومع ذلك لم ينجح الامبراطور نجاحاً كلياً في خطته، لأنهم ما إن رأوه، حتى غادروا راكضين بسرعة أكبر مما أظن، ولكن عندما التقوا بحوالي خمسين آخرين كانوا قادمين من خلفهم، تشجعوا بسبب عددهم، وقدروا ان بإمكانهم التصدي له إذا هاجمهم، ومهما يكن الحال، فإن الذين كانوا مع مانويل عارضوا بشدة الاشتباك (لأنهم قالوا: إنهم باتوا بعيدين جداً عن الجيش)، ومع هذا لم يضع الامبراطور الوقت بل هجم بسرعة قصوى، ورافقه السيياتوكراتور [أخوه اسحق] وركب محازياً له، لكن عندما لم يعد قادراً على التقدم — لأن فرسه كان منهكاً — تخلف وراءه، ونظراً لخوفه الشديد على سلامة أخيه، رجاه بحرارة كبيرة، وذكره بزوجته وأولاده، ووبخه مانويل وانتقد رأيه المستخف به قائلاً: «حسناً

يا أخي العزيز، هل تظن انني ماعشت سأتركك في أيدي العدو؟ ليس أنت؟ فكر ولا تتكلم باستخفاف عن نفسك»، وعندما أضاف اسحق هذه الكلمات: «لكن ابق هنا، حتى أستطيع الالتحاق بك وأنت تقا تل البرابرة»، قال مانويل: «إذا أعطاني الرب سأعود مسرعاً إليك بعد الاشتباك، والآن انني أنوي أشياء أخرى، ومتلهف إلى أفعال جريئة جذبتني تماماً إليها». وقال هذا لأخيه واندفع نحو العدو. وعلى هذه الصورة سارت الأمور بالنسبة إلى الامبراطور.

وأما بالنسبة للذين ذكرناهم في الكمائن، فقد أرسلوا واحداً من نبلائهم واسمه كوترزس Kotertzes ليقف على أوضاع شؤون الامبراطور وليعلم الأحوال، وأعادته الامبراطور مصدراً أوامره إليهم للقدوم بأقصى سرعة ممكنة، وما ان وصل مانويل إلى تلة مجاورة حتى واجه قوة تركية كبيرة وصل عددها إلى حوالي الخمسمائة، وزحف ليس بعيداً عنها، من خلفها السلطان ومعه الجيش كله، وما ان رأهم حتى قام على الفور بتسييد رحه، واندفع مسرعاً نحوهم، فطعن كثيراً منهم وألقاهم أرضاً.

ووقف الترك بلا حراك، وكان ألسنتهم عقدت وأصيبوا بالخرس، وعندما حدث هذا ظهرت القوة الرومانية التي سلف ذكرها، وكانت تشكل الكمائن، ظهرت على مقربة من الامبراطور الذي أرسل — كما ذكرنا — يستدعي رجالها، أما الأتراك الذين فهموا هذا وأدركوه فقد اختاروا قطعة من قواتهم وأمروا الذين كانوا في الساقة بالتصدي للرومان، المقربين، وظنوا انهم طوقوا مانويل، وأدخلوه في الشبكة. ولذلك عملوا كما يلي:

غير أنه وقف مستنداً على رحه، منتصباً على الأرض، ووجه أبا بكر (لأنه كان ما يزال مرافقاً له) أن يراقب عن قرب، خشية أن يمنع الرومان

من الوصول إلى أقرب التلال، وذلك بوساطة الترك، فوقتها يكون قد أحيط به تماماً، ولكن أبا بكر وقد أخذ يتصرف بطريقة معاكسة لما أراده قال: «قف، حقاً قف، ياسيدي، ألا ترى كم من المشاكل محيق بنا؟ اهتم بسلامتك» وبعدهما قال هذا وأكثر، وكان غير قادر على اقناعه، تصرف وفق أوامره، ولم يبال الامبراطور ولم يصنع لما قاله (فقد كان من غير الممكن بالنسبة له الفرار إلا مع عار مستقبلي) بل شرع ثانية بحملات على العدو، وبعدهما قتل واحداً منهم، أوقع الاضطراب في صفوف البقية، وبذلك اغتنم الفرصة فمضى ووقف على تلة صغيرة، حيث التحق به بقية الرومان، وكان أولهم جون، الذي بسبب كونه [مانويل] ابن أخيه أدخل فيما بعد في صفوف الـ Protosebastoi (٣٣)، وهكذا نجا الامبراطور بهذه الطريقة، من هناك، لأن فرسه كان مغطى تماماً بالعرق، ومنهكاً حقيقة.

وبينما كان الامبراطور مشتبكاً مع العدو، كان الدمستق جون [أكسوكوس] قد ترك بالخلف، وخشي أن يقع بين أيدي الأعداء، ذلك أن العدو استمر بالظهور هنا وهناك على شكل جماعات، وكان هو بلا عون، وألف فيما بعد تسويغات ضعيفة لصالحه، قائلاً إن المكان الذي وقف به كان مناسباً جداً، وكان من المتوقع عليهم التجمع هناك، لاتخاذ نقطة حشد للامبراطور، وهذه الطريقة كان قادراً على أن يُبقي على مقربة منه عدداً كبيراً من الذين كانوا — كما ذكرنا — خارجين من المعسكر إلى الامبراطور، وبعدهما أنقذ بوساطتهم، وصل إلى الامبراطور، ثم انتقد جون [أكسوكوس] نفسه وعدد كبير آخر من بقية الرومان شجاعة مانويل، وأصروا على أن مثل هذه الأشياء ليست بعيدة عن التهور، وعندما تفحصت المسألة، أصبت بالدهشة، كيف أنه في ذلك اليوم، كان في وسط مثل ذلك العدد من المهالك، ولم يصب بجراحة أو بضربة، ولا أجرؤ على القول فيما إذا كان بسبب أعماله الجرئية المتكبرة ضد هؤلاء

البرابرة، حيث زودهم بمعرفة أصالته ونبله، وأصبح من المتعذر بالنسبة لهم الحاق الضرر به، أو أن مرد ذلك كان إلى عناية حكيمة به حسبما بات مفهوماً، وأنا شخصياً لأرى ما قام به بين الأشياء التي تستحق الادانة، كما لا يمكنني تصديق شجاعة الاسكندر، عندما أفتحص بشكل منهجي الحقائق المتعلقة بذلك الرجل، ما لم يمنح المرء شيئاً ما إلى بداية الشباب، لأن الشباب لا يقاوم، وإذا ما ارتبط بالقوة والقدرة يصبح غير مرئي، لكن لندع كل انسان يفكر ويقول ما يجب قوله حول هذه المسألة.

وعندما تعرض الامبراطور — كما سلف بنا القول — إلى ملامة أتباعه قال: «نحن لانحتاج في الوقت الحالي مثل هذه الكلمات، بل ينبغي عقد اجتماع بأحسن صيغة ممكنة خشية فقدان المزيد من الرومان في هذا اليوم، لأن أعداداً كبيرة مازالت تأتي ممن تركوا خلفنا»، وبدا من المناسب اقامة كمين في أقرب شعب جبلي، لمساعدة الذين مازالوا يتقاطرون، من حاشيته، وأيضاً ترك نيكولاس أنجيلوس — الذي تقدم ذكره — في الخلف في الكمين مع الوجدتين العسكريتين، اللتين وضعهما الامبراطور تحت قيادته، عندما قاتل الترك، ولم يكن الامبراطور قد سار بعيداً عندما وصل إلى شعب جبلي، وشاهد الأتراك يقتربون، وقد تصرف وفق مايلي: فقد وقف مع عدد قليل من رجاله على طرف الوادي، وأمر الآخرين الذين كانوا صاعدين في أن يتوجهوا مباشرة نحو العدو، وما ان اصطدموا بالبرابرة، حتى سمع ذلك الذين كانوا في الكمين، فخرجوا مسرعين، وطعن نيكولاس السالف الذكر برمح واحد من الأتراك، ومع ذلك لم يستطع زحزحته من مقعده، ذلك أن الطعن بقوة لم يكن ممكناً بسبب انحدار الأرض، وبذل مانويل أقصى ما أمكنه لدفع الترك إلى الوراء بعيداً، فأمر أتباعه بالذهاب إلى الشعب الجبلي فيما بدا بسرعة قصوى، لكن توجب عليهم عدم صعوده، وعندما لاحظ الأتراك هذا، انسحبوا بهدوء، وفي هذه اللحظة التقى النبالة الذين كانوا مع كوترزس

Kotertzes بالامبراطور، وكان هؤلاء — كما سلف القول — قد أرسلهم الامبراطور نفسه لتقديم العون للرومان الذين تركوا بالخلف، وهكذا قاتل الامبراطور الأعداء ثانية، وفجأة عطف هؤلاء رؤوس خيولهم وشرعوا بالفرار، وعندما رأى الامبراطور هذا، قال لأتباعه: «تشجعوا، هناك قوة قادمة إلينا من المعسكر»، وعندما أخفق الأتراك في الاقتراب، علل بعضهم السبب بقوله: «لقد أدار الأتراك ظهورهم وغادروا فجأة، مع أنه لم يكن هناك خوف يدفعهم (ذلك أننا لم نكن معادين لهم بالقوة) بسبب أنهم كانوا قادرين عليهم رؤية شيء كان ما يزال خفياً عنا، ذلك أنهم كانوا ينظرون نحو الأسفل من مكان مرتفع»، وتبرهن أن هذا كان صحيحاً تماماً، فقد كان مارأوه هو الرومان من المعسكر، فهؤلاء قد عرفوا أن الامبراطور كان بالفعل واقع في مكان ضيق تماماً، فهبوا مسرعين لتقديم العون له.

وقد روي أنه حدث آنذاك ان قام السيياتوكراتور اسحق عم الامبراطور من جهة أبيه، الذي كان آنذاك في المعسكر، بالاقتراب من الخيمة الامبراطورية، وذلك عندما علم بأن الامبراطور كان في وضع يائس، ودخل إلى البيعة المجهزة بالفراش اللازم، وانتظر الذي سيحدث، عازماً على اغتصاب العرش، الذي كان منذ زمن بعيد — كما سلف القول — الشوق إليه قد استولى عليه، وتنامى الأمر لديه، ولم يقف عند حد النمو، بل نظر إليه بمثابة ميراث من الآباء إلى الأبناء، وستحدث الرواية المقبلة، — على كل حال — عن هذا الأمر فيما بعد.

٨- عندما — كما قلت — (انني عائد إلى حيث بدأت الاستطراد) التحقت القوات القادمة من المعسكر بالامبراطور، تشجع الامبراطور بعددهم، فقام مجدداً بمهاجمة العدو، وأصبح البطل لأفعال شجاعة، ثم عاد إلى المعسكر بنظام جيد، ونهض عند الفجر، وركب الطريق، وهاجم الأتراك (الذين كانوا معسكرين بالقرب كثيراً) القوة الرومانية، التي

كانت ثانية في أرض وعرة، لقد هاجمها من الجانبين وآلموها بشدة، وسقط كثير من وحدات الرجالة للسبب التالي: كان في الجيش الروماني مقاتل رائع، اسمه كريتوبلس Kritoples ، وكان هذا الرجل يقود قوات الرجالة، وعندما حرف جانباً تشكيلته، صار في قبضة الترك الذين كانوا يتبعونه عن قرب، ولدى تغلبهم عليه بأعدادهم الضخمة، تطلع نحو فرار علني، وبهذه الطريقة، وعندما فقد كثيراً ممن كانوا معه، نجا بصعوبة، وعندما علم الامبراطور بهذا، عهد بالوحدة التي معه إلى أخيه وإلى عدد كبير آخر من كبار الأعيان، وأسرع مع عدد صغير من الرجال لانقاذ الجزء الذي كان يعاني من تلك القوة، ووصل إلى وسطهم، فأمرهم بالوقوف بشجاعة، وقاتل بنفسه الأتراك، ولاحظه الأتراك وعرفوه، فلم يعودوا يقاتلون الرومان يداً بيد.

وأعمل الامبراطور فكره، حول كيف يمكن للقوة الرومانية أن تسترد شجاعته، فبسبب ما حدث لقوات الرجالة — كما ذكرنا — بدأت شجاعتهم تتلاشى، لأنه مامن شيء يؤثر على النفس مثل أن يرى الانسان عن قرب نزيه دم زميله، وسحب الامبراطور من جيبه مدرجاً كان مدوناً عليه أسماء كل واحدة من الفرق، وأعطى توجيهاته بما ينبغي على كل واحدة، أن تفعله في مثل هذه الظروف الدقيقة من الأزمة، ورفض عدد كبير من الوحدات طوال النهار مواجهة العدو، وتحلوا عن صفوفهم، وساروا نحو قافلة أثقال الجيش، ولم يقيموا وزناً لأوامر الامبراطور إلى حد أنه على الرغم من أن كثيراً منهم قد عوقبوا جسدياً ذلك اليوم من قبله، فإن البقية لم يباليوا تقريباً بكل ما كان يفعل، فقد جعلهم الجبن المنقطع النظر ناسين تماماً لشجاعتهم.

وعندما امتزجت على هذه الصورة قوات الساقة بالثقل، طوقت بقية قوات العدو بأكملها الامبراطور، وضغطت عليه بشدة بالغة، غير أنه تصدى للعدو بخبرته القيادية، وهكذا استطاع أن يبقى دون أن يصاب

بأذى، ثم بدا من المناسب لبعضهم العسكرة هناك، وعدم متابعة السير، غير أن هذا لم يرض الامبراطور، خشية انه إذا ما استمر الرومان في حالة الفوضى وعدم الانتظام التي كانوا فيها، فإنهم سيهزمون فوراً، أو في الصباح التالي عندما يكونون قائمين بالتجهز للمغادرة (٣٤)، وقال عليهم بالحري القتال، فإذا ما تمكنوا بطريقة ما من ردّ العدو، فبإمكانهم زرع الحسك دونما اعاقه، والعسكرة حيثما أرادوا وليس في فسحة محدودة، وبعدما قال هذا، وعندما رأى أن غالييتهم لم تقبل النصيحة عهد بالمسؤولية عن المعسكر إلى زيكانديلس Tzikandyles (٣٥) وسينوباتيس Senopates ، وكذلك إلى كريتبلس Krit-oples وعدد كبير آخر من القادة.

وأخذ الامبراطور الراية الامبراطورية، وقام بمهاجمة العدو بكل سرعة ومعه أتباعه، وقد اعترى العدو الدهشة بسبب الهجوم المفاجيء، وأرغمهم الامبراطور على التفكير بالفرار، ثم تبع ذلك مطاردة فخمة، وقتل الرومان الذين تولوا أعمال المطاردة عدداً كبيراً من الأعداء، وأخذوا قليلاً منهم وهم أحياء، وكان بينهم بركوساس Pharkousas ، وكان شخصية بارزة بين الأتراك، فهو الذي كان يقدم بيده الكأس إلى السلطان أثناء تناول الطعام، ويدعو الرومان هذه الشخصية «حامل الكأس»، وكان في الجيش الروماني واحداً له قرابة بالرومان من ناحية المولد، لكن بما أنه نشأ وتربى بين الأتراك، فقد تهيأ له حظ تسلم اماره بينهم، وكان اسمه غبراس Gabras (٣٧)، وعندما قتله الرومان في ذلك اليوم، حملوا رأسه وطافوا به حول المعسكر، وتوقف الامبراطور عن المطاردة (لمضي هزيع طويل من الليل) وعاد مع علامات الظفر، ليجد الرومان ما يزالون في فوضى عظيمة وعدم انتظام، (حتى أن حيوانات النقل لم تكن قد تحررت بعد من الأثقال التي على ظهورها) فقام بسرعة برسم دوائر المعسكر كله، وعين مساحة مناسبة لكل واحدة من القطع

العسكرية، لكن عدد الجنود الذين أمضوا الليل على ظهور خيولهم لم يكن قليلاً، فبسبب الجبن المتناهي، كانوا غير قادرين على الترحل عن ظهور مطاياهم، وعلى هذه الصورة عسكروا في تلك الليلة.

وما ان أشرقت الشمس، ورؤيت على وجه الأرض حتى مضى إلى وسط الجيش، ووقف على ظهر فرسه، كما هي العادة بالنسبة للذين يتولون قيادة الوحدات العسكرية، وتحدث كما يلي: «أيها السادة الشرفاء، انني لم آت لأحثكم على أن تكونوا شجعاناً، بسبب ادراكي لجبنكم أو أي جانب ضعف آخر، إن الرومان لا يتصرفون بمثل هذه الدناءة ولا يقودون أنفسهم بمثل هذا الانحطاط، ولا يلطخون هكذا بالعار فخار أجدادهم، ولكن بما انني أففذ هذه العادة العسكرية بمنخاطبتكم، لا أريد أيضاً اقناعكم بانخاذ سبل أكثر أماناً للمستقبل، لأن هناك لحظات تقع فيها مخاطر غير مرئية أو متوقعة وتلقي بالحزم والشجاعة في فوضى، وعليكم أيها الأتباع من الجند أن تعلموا اننا نواجه اليوم صراعاً أعظم من الصراعات الماضية، وكأني بهذا الصراع هو الصراع الأخير، ويتوجب علينا أن نكون على خير استعداد، على أساس جهودنا المتقدمة، وإلا سنلطح بالعار أفعالنا الرائعة السالفة، ونكون السبب في جلب تعاسة عظيمة إلى أنفسنا، وكما أن القطعة الخاتمة من حسن الحظ تقوّم بشكل طبيعي ما تقدم من سوء حظ، كذلك تدمّر المأساة اللاحقة النجاحات المتقدمة، وخشية أن يقع هذا لأنفسنا، على كل واحد منا، ياخيرة الرجال، أن يحافظ على النظام بقدر ما هو ممكن، ذلك اننا جميعاً ندرک اننا إذا ما حافظنا على صفوفنا متراصة تماماً، وإذا ما أسهم كل منا بنصيبه إلى البقية، سيقى لنا امكانية أن نربح وأن نبقي لأنفسنا شهرة سوف تعيش للناس وللزمن، وعلى كل حال، إذا ما أحدث العكس، في أن افترقنا عن بعضنا بعضاً، اعلموا إننا سنكون على الفور فريسة سهلة للأعداء، وكما الحال عندما تكون هناك مدينة محاصرة فتتدمر أسوارها

وتنهار، وبذلك يسهل دخول الأعداء إليها، يندرج كذلك الأمر على الجيوش، وعلى هذا الأساس، ولهذا السبب اخترع القدماء: الفئات، والوحدات، والمقدمة والساقة، والجناحين الأيمن والأيسر، والصفوف المتناظرة، وأشكال الزحف، لأن الجيش أيضاً مدينة، إنه يتطلب أبواباً، وأسواراً، وخنادق، وجميع أنواع المستلزمات مثل المدن، وعليه ينبغي أن نعدّ أنفسنا لأننا مازلنا في وسط بلاد العدو، وتجوّلنا بعيداً عن حدود رومانيا» (٣٨).

وبعد ما قال هذا، وعبأ الجيش ونظمه، انطلق مباشرة نحو البحيرة التي كان الناس يدعونها من قبل «سكلروز Skleros»، ويسمونها الآن «بوزغور» (٣٩) Pousgouse، وعندما وصل السهول من ذلك المكان الضيق، وأصبح في منبسط مفتوح، أمر الامبراطور واحداً من الجنود في أن يصرخ بصوت مرتفع جداً، ويستدعي واحداً من الأتراك، ونفذ الجندي ما أمر به، وقال الامبراطور إلى التركي الذي اقترب: أخبر سلطانك بما يلي:

«يقول لك الامبراطور العظيم عبري هذا: لقد جننا إلى قونية نفسها، لقد دمرنا أرضك، لأننا بشكل خاص نرغب في معاقبة جرائمك ضد امبراطوريتنا [أي: جلالتنا]، إنك على كل حال، قد فررت بشكل مستمر، مثل عبد أبق، تنتقل من مكان إلى آخر، ولذلك لم تبق لتواجهنا وجهاً لوجه، وبناء عليه، نحن مغادرون لأرضك، لكن عليك أن تستعد، واعلم جيداً انه عندما يأتي الربيع سنعود إليك ثانية باستعدادات أعظم»، وبعد ما أعطى هذه الرسالة إلى التركي، وقدم له درع واحد من النبلاء، ليكون دليلاً على أنه قد أرسل من قبل الامبراطور، أمره بالانصراف.

وعندما سمع السلطان بهذا، بعث بعد وقت قصير برسل من عنده

من أجل السؤال عن السلام، وقدر الامبراطور المسألة حق قدرها ولم يغفل عن أهميتها، وأجل الاجابة على الوفد بشكل متكرر من يوم إلى اليوم الذي يليه بحجة الانتقال من مكان إلى آخر، والسبب وراء ذلك كما أعتقد هو أنه أراد أن يعلم شيئاً يقيناً ومحددأً حول الذين متوقع — كما قلنا — قدومهم من الغرب.

٩- وعندما وصل إلى موقع توجد فيه ينابيع نهر منادر [بيوكمنادرز]، ظاناً أنه بات بعيداً عن الأراضي العدو، وملاحظاً أن المنطقة كانت غزيرة المياه، ومريجة وسارة للعين البشرية، رغب أن ينال نقاهة من متاعب المعارك بالراحة والصيد، غير أنه لاحظ وجود بعض التحركات عن بعد في الأجرأ، وبسبب بعد المسافة كان غير قادر على تحديد مارآه، لذلك بعث ببعض من رجال حاشيته ليستطلع، فسمع بوجود عدد كبير من الخيم تجمعت هناك، والحركة في ذلك الحرش كانت حركة خيول هذه الخيم، وكانت ترعى الأعشاب بدون وجود لجم في أفواهاها، ولقد عرف على الفور من كان أولئك الأتراك، وسأهم تبعاً لقبيلتهم: متنبهاً إلى أن رجلاً اسمه رامن Raman كان مقدمهم، وانهم قد جاءوا تماشياً مع عادتهم في نهب بعض الأحواز الرومانية، وأنهم الآن يحملون غنائم كبيرة (٤٠).

وبعدما اختار بعض الجنود الذين كانوا معه، أرسلهم بسرعة للقيام بأعمال المطاردة، وبادر مسرعاً إلى مكان يمكنه من الرؤية الجيدة، ووقف هناك يراقب ومعه عدد قليل من الرجال، وكان الأتراك في الوقت نفسه قد حملوا أبقالهم، وحزموا أمتعتهم وانطلقوا من هناك، ولأنهم أدركوا بسرعة أنهم سيقعون بأيدي الرومان، وذلك بعدما رأوهم مندفعين على شكل جماعات، انعطفوا ووقفوا لمواجهةهم، وعندما دفعهم الرومان، أداروا ظهورهم ثانية، وفي الحقيقة عندما فعلوا هذا مراراً جعلوا كثيراً من الرومان يترنحون، ولهذا تخلوا عن المطاردة، ونشدوا راحة أنفسهم بالعودة.

ولدى ملاحظة الامبراطور ذلك (لأنه — كما قلنا — وقف على مكان مرتفع يراقب الأمور) توجه نحوهم بأقصى سرعة ممكنة، بدون درعه، وعندما رأى الأتراك عدداً من الرومان قد لحقهم الإعياء، نتيجة المطاردة — حسبنا ذكرنا — وانهم تفرقوا وابتعد أحدهم عن الآخر، ولدى ادراكهم تماماً كم كان عدد الآخرين قليلاً، هاجموا البيزنطيين من على الطرفين، وقاربوا أن يلحقوا بهم بالحال ايذاءً عظيماً، لولا ان الامبراطور ظهر لهم بشكل غير متوقع وأنقذهم من الخطر، وأمضى وقتاً طويلاً في متابعة مطاردة الهاربين الأتراك، لكن لدى ادراكه أن حصانه قد انهك، وقف هناك منتظراً أن يزود بحصان يكون من نوع الخيول السريعة المتميزة، والتي لسرعتها، دعيت بالخيول «البرية»، ووجه الرومان الذين كانوا يتقاطرون على شكل أفراد أو جماعات، وتمسكوا معه من الخلف بالمطاردة أبعد، وألا يتخلوا عن حماسهم، وقرر آخرون من الرومان انهم بعدما قاموا بمطاردة بعيدة المدى، وبما انهم غير قادرين على تحقيق أي شيء، ثم لأنهم لاحظوا ان المكان الذي جاؤوا مندفعين نحوه معظمه خلواً ومهجوراً، وفي الحقيقة يتعذر الوصول إليه، قرروا ادارة ظهورهم، وسُعد مانويل بابن عمه أندرونيكوس (٤١)، الذي تحدثنا عنه مطولاً فيما مضى [كذا]، والذي كان مندفعاً نحو العدو، وقد تحلى بعد الضغط عن حصان له [لمانويل]، وبعدها امتطاه سمح له بالانتظار هناك، ووجهه أن يأخذ الحصان البري المذكور، الذي سيجلب فوراً، ومن ثم يلتحق به في القتال، وبعدها اندفع مانويل ضد العدو.

وكان الجيش التركي مقسوماً إلى قسمين: مضى قسم منهما نحو الأمام لجلب قطع الخيل كله، الذي تبعهم على شكل جماعات بدون أحلاس، وجاء البقية خلفهم لصدّ الرومان الواصلين، وحيث أن ما من أحد من الرومان ظهر في أي مكان، فقد تشجعوا للمستقبل، واتحدوا معاً، وخططوا لجمع القطيع المذكور في مكان واحد، وكان هذا القطيع مندفعاً

هنا وهناك بدون سيطرة عليه، وعندما لاحظوا أن الامبراطور لوحده من دون الرومان، يقاتلهم بدون درعه، تقاطروا نحوه بشكل حاشد، مفوقين قسيهم، ومشجعين بعضهم بعضاً، واتخذ الامبراطور موقفاً فوق الشجاعة، فبعدما أدرك أن تطويقه من قبل الأعداء كان من غير الممكن هناك (المكان الذي امتد على الجانبين معاً، منعهم من ذلك) جعل نفسه هدفاً لهجماتهم، فرمى بعضهم أرضاً وأرغم الباقين على طلب الفرار، ثم إن واحداً من البرابرة كان غير قادر على مقاومة طعنة الامبراطور، فانطح على الأرض، وما ان لاحظ قيام مانويل بالهجوم والتقدم نحو الأمام، حتى رماه بسهم أصاب به نهاية رجله من الخلف، أي أصابه في الجزء الوحشي البارز من كعبه، ثم سارع التركي ليرميهِ ثانية، لكن قبل أن يفعل ذلك أخذ الامبراطور أسيراً بامساكه من شعره، وفيما هو عائد وهو معه إلى الجيش، واجه أندرونيكوس، ذلك أنه عندما جلب له الحصان الامبراطوري، امتطاه وهاجم الأتراك، وحاول مانويل بالحاح أن يثنه عن الذهاب بعيداً، ذلك انه كان مجرداً تماماً من السلاح، وبما أنه كان غير قادر على اقناعه (لأن أندرونيكوس تابع المطاردة بشجاعة وبدون حدود، وشخر ونخر شوقاً للحرب، وكان يحمل رمحاً وترساً بشكل جيد، فهو لم يستخدم سلاحه، بل ماأخذه من واحد من النبلاء) تركه يذهب، وتابع مانويل سيره على الطريق والتحق ببقية الجيش الروماني، ولم يجب على أسئلة الذين استوضحوا منه كيف تدبر الأمور في القتال عندما مضى لوحده تماماً ضد العدو، كما أنه لم يذكر شيئاً عن الأعداء الذين — كما ذكرنا — تولى قتلهم، متجنباً بذلك شكوك دناءة التبجح، لأن الفعل الذي لايقع على مشهد من الناس ويعرض لسماع الثناء عليه، يقود بسهولة إلى الانكار.

وأمر على الفور بمعالجة جرحه والعناية به خشية أن يلهب وتتعدر معالجته، ثم حدث بعد ذلك حدث يستحق الذكر، فعندما لم يعرفوا

كيف يعالجونه، سحب واحد من الجنود مديته وعزم على ازالة قطعة من لحمه، بغية وضعها وهي ساخنة على الجرح فلربما تمنع الالتهاب، وفي الوقت الذي تقبل فيه الامبراطور رغبة الرجل الطيبة، منع ذلك، وأمر بقطع قطعة من لحم واحد من الخيول التي هلكت على الطريق نتيجة للانهاك، ووضعها مباشرة على الجرح.

وبعدما ثابر على الزحف خلال منتصف الليل وصل إلى المعسكر المنصوب قرب ينابيع نهر منادر، وكانت هناك كميات هائلة من المياه تتدفق من الصخور تحت الجبال، وكأنها تنبعث من عشرات الألوف من الأفواه، وتغطي المنطقة المجاورة ثم تتجمع أولاً في بحيرة، بعدها تندفع حافرة قناة، ومشكلة نهراً من هناك (٤٢)، وبالنسبة لأندرونيكوس الذي — كما ذكرنا — تابع سيره نحو الأمام، فإنه لم يحقق شيئاً، باستثناء أنه ساق إلى المعسكر كثيراً من الخيول كانت ممتطاة من قبل الأعداء الذين قتلهم الامبراطور، وبعد الاكتفاء بهذا، ركب الامبراطور الطريق إلى بيزنطة، وعندما وصل إلى بيثينيا Bythynia أسكن الرومان الذين أنقذوا من فيلوميلون، وذلك حسبما ذكرنا من قبل، وأمن ممتلكات لهم بالتبادل مع أحد الأديرة المقدسة، وأشاد هناك حصناً سماه بيليا Pylia (٤٣).

١٠- في حوالي ذلك الوقت، جرى خلع كوزماس Kosmas — الذي كان آنذاك مسؤولاً عن الشؤون اللاهوتية، وكان رجلاً أديباً [Kosmos] في الحياة والحديث — من العرش البطريركي للأسباب التالية (٤٤):

كان هناك رجالاً مارس حياة الرهبنة، واسمه نيفون Nephon ، لم يكن عرضة للاغراءات العامة للثقافة، والعلوم الدنيوية، بل كرّس نفسه منذ الطفولة للكتابات المقدسة، وبينما كان ميخائيل، وهو رجل مقدس،

ومتميز بصلاحيه، يجتلى العرش اللاهوتي، بشر نيفون هذا بأفكار غير مقبولة، نشرها بين كثيرين من حوله، تعلقت بالعقائد المسيحية، ولهذا السبب تمت ادانته بقرار مجمع ديني مقدس، فقضت لحيته، وسيق إلى السجن ووضعت الأغلال حول قدميه، لكن بعدها توفي ميخائيل، وزين كوزماس العرش — كما ذكرنا من قبل — تلقى نيفون على الفور حرية أعظم للكلام، ونشط كثيراً في الاجتماعات والأسواق، وهو لم يفعل شيئاً تعدى توزيع أفكاره، ورفضه لرب العبرانيين (٤٥)، ورغب بالافادة من مثل هذه الأشياء، وأعجب به كوزماس اعجاباً عظيماً، وجعل من هذا الشخص خدينه، وأعلن أن ماصدر بحقه كان ظلماً، وسارع إلى إلغاء العقوبات التي صدرت من قبل بحق الرجل، وقد احترم فضائله، ومنح شيئاً ما إلى كلماته، لأنه كان في وقت مبكر قد تنبأ باعتلائه العرش البطريكي.

وكانت الجماهير غير راضية عن هذا، ولهذا تقدم بعض من المتعلقين بكوزماس والمهتمين به، منه، عندما كان مرتاحاً مسترخياً، وقالوا: «لماذا، أيها الراعي المقدس، عهدت بنفسك إلى ذئب؟ ألا تعلم أن رأي الرعية انك مخدوع في هذا الجانب؟ انفصل عن صداقة الفاسد، وأن تتعايش مع رجل مزدول أمر يكفي للادانة».

هكذا تكلموا، أما الذين كانوا معادين للبطريك فقد اشتكوا علناً ضده، واتهموه أمام أعين الرب والامبراطور، غير انه تابع غير عابىء بأي شيء، وظل متعلقاً بقوة بنيفون، وكان غير راغب بالانفصال عنه، مهما حدث، وبسبب بساطته المتناهية ماكاد ينجو من العقوبة القاسية، وبعدهما أمر الامبراطور بايداع هذا الشخص بالسجن، وعندما جاء الرجال لأخذ [نيفون]، أصيب كوزماس أولاً بالذهول إلى أبعد الحدود، ثم استرد وعيه، وجمع نفسه، وذهب ماشياً إلى صحن الكنيسة، حيث حاول انتزاع الشخص من الرجال الذين كانوا آخذيته، وعندما تشبثوا ولم

يتراجعوا، رغب في أن يؤخذ معه إلى السجن، واستولى صراع على الكنيسة بسبب هذه المسألة، وتورط كوزماس بالاتهامات، ولم يتخلص من هذه المشاكل حتى وصل الامبراطور إلى بيزنطة (لأنه كان منشغلاً بالأعمال العسكرية)، وخلع كوزماس من العرش وفق الطريقة التي أنا مقبل على حكايتها:

فبعدهما استقبل الامبراطور كل واحد من الأساقفة على انفراد، سأله كيف بدت تقوى نيفون له، وبعدهما أوضح كل واحد منهم الأحوال بكل صدق، أحال آخر الأسئلة إلى كوزماس، وكما هي العادة أعلن باصرار رأيه بنيفون فيه مديح وتبجيل، وسماه علناً تقياً، ولا يوجد من يباريه بفضائله، وعرضت القضية أمام المحكمة، واستشار الامبراطور الأساقفة، لكن ليس مرة أخرى على انفراد، بل سألهم مجتمعين عن رأيهم بنيفون، فأجمعوا على ادانته بعدم التقوى، وتمسكوا بهذا الموقف، فوجه الامبراطور السؤال إلى كوزماس قائلاً: «لكن، أنت أيها السيد، مالذي تراه بالرجل؟» وعندما أعلن ببساطته عن طواعية تمسكه بالأراء نفسها، صرخت الجماهير ضده، وعدّوه غير أهل للبقاء على العرش، وهكذا أزيح من وسطهم، لهذا السبب، والذي أراه انه باستثناء سداجته، كان رجلاً غنياً بجميع الفضائل.

١١- وبعد وقت قصير عاد الامبراطور إلى معالجة مشاكل الترك [١١٤٧]، فبعد وصوله إلى نهر رينداكوس Rhyndakos ، انشغل بالتحضير لحصار قونية وللعيث فساداً بكل ماحولها، ولم يكد -على كل حال- الجيش ينتقل من هناك، حتى جاء رسل من عند السلطان يطلبون السلام، وكان على رأس السفارة رجل عالي المكانة قوياً جداً بين الأتراك اسمه سليمان (٤٦)، وكان رجلاً مشهوداً في كثير من الحروب، وتبرهنت لديه قدرة الامبراطور، عندما -كما رويت- واجه الجيش الروماني عند الموقع المعروف بتلة كالوغرايا Kalograia ، وهزم

بشكل ساحق وكانت أهداف السفارة كما يلي:

أن يعيدوا إلى الامبراطور براكانا Prakana ، وكل شيء آخر أخذوه من قبل من الرومان، وهكذا اتفقوا على أن يكون هناك سلام في المستقبل بين الترك والرومان، وقبل الامبراطور بهذه الشروط، وأوقف الحرب، وعاد إلى بيزنطة.

١٢- وكانت في هذه الآونة بداية تحرك جديد في الغرب، للنورمان والفرنسيين، وأمم الغالين، وكل من سكن حول روما، والبريطانيين والبريتون، وببساطة تحركت جميع صفوف الغربيين، وانطلقت بحجة ظاهرة هي أنهم سيجوزون من أوروبا إلى آسيا بقصد قتال الترك أثناء الزحف على الطريق، ولاسترداد الكنيسة في فلسطين، ولحماية الأماكن المقدسة، غير أنهم، كانوا في حقيقة الأمر يريدون الاستيلاء على بلاد الرومان، بوساطة الاغتصاب، وسحق كل شيء أمامهم (٤٧)، وكان جيشهم لا يعد ولا يحصى، وعندما علم الامبراطور بخبر دنوهم من الحدود الهنغارية بعث إليهم برسولين هما: ديمتروس ماكريمبولاييتس De-metrioies Makrembolites ، والاسكندر، وكان ايطالي المولد، وكان كونتاً لمدينة غرافينا Gravina الايطالية، لكن قد تم طرده منذ زمن طويل مع عدد كبير آخر من المملكة، وذلك بوساطة طاغية صقلية [روجر الثاني]، وعقب ذلك، أصبح عن طواعية من رعايا الامبراطور (٤٨)، ووجهها الامبراطور للبحث في نوايا الغربيين، وإذا كانوا قد قدموا وهم لا ينوون الحاق الأذى بالرومان، فليؤكدوا هذه المسائل بالأيمان.

وعندما مثل الرسولان أمام قادة البرابرة قالوا مايلي: «إن توجيه حرب خفية ضدّ الذين لم يقتربوا ذنباً، ليس من التقوى، وليس أيضاً أمراً لائقاً برجال ذوي منزلة رفيعة من حيث الأصل وشدة البأس، لأنهم إذا

ماكانوا المنتصرين، فانتصاراتهم هباء، ربحوها بدون شجاعة، وبها انها هباء، فإنهم لن يعرضوا أنفسهم للمخاطر، من أجل التميز، ثم إن ذلك لن يكون محموداً، وإنه سيكون من المستحيل بالنسبة لكم عبور أرض الرومان دون أن تقدموا للامبراطور ضمانات بعدم الايذاء، وما لم تكونوا أديتم أيماً زائفة، لماذا تثيرون الحرب سراً؟ وسيكون من الصعب بالنسبة لكم قتال الرومان مباشرة، وسيكون الأمر أكثر صعوبة إذا خرقتم موثيقكم وآثرتم الحرب ضدهم سراً، لأنكم في تلك الحالة إنما تحاربون الرب، وتقاتلون قوة الرومان، وعلى كل حال، إذا كانت صداقتكم أصيلة، وخالية من الرياء، وليس في باطنها خيانة، وتؤكدون هذا الأمر بالأيان، وقتها سيكون بإمكانكم جواز أرض الامبراطور العظيم، وكأنكم تعبرون أرضاً صديقة، وبالتعتل والتبصر سوف تتمتعون بكرم الضيافة وبجميع أنواع اللطف». هكذا قال الرسولان.

واجتمع الآخرون [الصلبييون] معاً في خيمة كونراد ملك ألمانيا، لأنه استحوذ على مكان الصدارة بين أمم الغرب، وأعلنوا أنهم لم يقدموا للاحق الأذى بالرومان، وإذا كان الأمر يستدعي ضمانة القسم، فهم على استعداد لأداء ذلك، مذكرين أن حملتهم هي إلى فلسطين، وضد الأتراك الذين نهبوا آسيا، وبناء عليه بات من المناسب للرومان أن يترجموا أقوالهم إلى أفعال، أي أولئك الذين كانوا على مقربة من الملوك، وكل من كان بارزاً بينهم، وأعني الأدواق والكونتات، الذين مناصبهم متميزة، ومثلها تميزهم بتحدرهم من أعيان الامبراطورية، وبحكم أن الأعظم نبالة يتفوق على الآخرين، وبما أن الدوق يتقدم على الكونت، والملك أعلى من الدوق، والامبراطور أرفع من الملك، من الطبيعي أن يخضع الأدنى للأعلى والأسمى مكانة، يسانده في الحرب، ويطيعه في مثل هذه المسائل، وبناء على ذلك فإن اللاتين اعتادوا على تسمية الذي يدعوه الرومان «باسليوس» بالامبراطور، وذلك اشارة منهم إلى منزلته الرفيعة، ثم

إن الملوك هم الذين يحتلون المرتبة الأدنى. وهكذا يكون الحال.

وعندما أنجز الرسولان المهمة التي توجهها من أجلها إلى البرابرة ونجحاً، عادا إلى بيزنطة، بينما تابع الملكان سيرهما على الطريق، وبالطبع لم يختلط الجيشان ببعضهما، وسار الألمان أولاً، وخلفهم سار الفرنسيون، وأنا لأعرف لماذا فعلوا هذا، ولعل مرد ذلك إلى أن كل منهما كان يود أن يتفاخر بأنه خاض معركة هامة لوحده، أو أنهم اهتموا بموضوع المؤن، وانها ماكانت لتكفيهم مجتمعين معاً، وساروا بأعداد لاحصر لها ولاعد، تزيد على رمال الشاطيء، وعندما نصب اكزسيس Xerxes جسراً من المراكب فوق الهلسبونت، لم يتفاخر بأعدادها الكبيرة، لأنهم عندما وصلوا إلى الدانوب، اتخذ هناك الامبراطور اجراءات محددة لجوازهم، وأمر الشطر الأكبر من الموظفين الذين تمركزوا على ضفتي النهر ليكتبوا حمولة كل سفينة، وبعدما وصلوا بالعد إلى تسعين عشرة آلاف [٩٠٠, ٠٠٠] لم يستطيعوا أن يعدوا أكثر(٤٩).

١٣- هكذا كانت عزيمة هذه الحشود، وعندما وصلوا إلى القرب من مدينة نيسوس Naissos [نيس]، التي هي حاضرة داشيا(٥٠)، قام ميخائيل، وكنيته براناس، الذي كان الامبراطور قد عهد إليه بحكومة تلك المنطقة، بتزويدهم بالحاجيات الأساسية، ولدى وصولهم إلى سارديكا [صوفيا] Sardika ، تلقاهم اثنان من الأعيان، ورحبوا بهم بشكل لائق وزودوهم بالضروريات، وكان أحد الرجلين ميخائيل سيباستوس، من أسرة باليولوجي Palaiologi ، وكان واسع التجربة، خبيراً في كثير من الشؤون، وكان قد طرد من قبل، من قبل الامبراطور جون، لسبب أجهله، وصار منفيّاً، غير أنه استدعي من قبل الامبراطور مانويل، وأصبح أثيراً لديه، وموقفاً على دولة الرومان خاصة، فهكذا كان هو.

أما الآخر فكان شخصاً اختاره كل من الامبراطورين ليشغل وظيفة كارتوليريوس Chartouarios [رئيس ديوان الانشاء]، ونال رعاية الامبراطور جون ونظر إليه نظرة تقدير، فعندما توفي ألكسيوس أكبر أبنائه، اعتمد عليه الامبراطور بدعوة مانويل لاستلام صولجان الملك بعد موته وأن ينقل إليه المنصب الامبراطوري (٥١)، ولهذا السبب ذهب إلى سارديكا.

وكان البرابرة في منطقة وعرة صعبة (لأنه من نهر الدانوب إلى سارديكا يرتفع عدد كبير من الجبال عالياً، وهي في الحقيقة متعذرة العبور) وقد تقدموا بهدوء، ولم يفعلوا شيئاً يتعارض مع رغبات الرومان، ولكن عندما دخلوا إلى السهول التي أعقبت المصاعب في منطقة داشيا، بدأوا يظهرون نواياهم الشريرة، فقد استخدموا قوتهم الظالمة ضد الذين كانوا يقدمون لهم البضائع للبيع في الأسواق، وإذا ما قاوم أحد سلبهم، جعلوه ضحية لسيوفهم، وكان الملك كونراد غير مبال تماماً بما كان يجري، وهو إما لم يهتم بالمتهمين، أو كان إذا ما أولى الاهتمام تولى عزو كل شيء إلى حماقة الحشود.

ولدى سماع الامبراطور بهذا، أرسل جيشاً تحت قيادة بروسوك [برسق] Prosouch وهو رجل قوي المراس في الحرب، وبعدها قابلهم قرب أدرنة، تتبعهم لبعض الوقت على مسافة قريبة، ساعياً إلى كبح جماح الحشود، والحيلولة دون انتشار فوضاهم، وعندما رأهم أصبحوا أكثر وقاحة، اشتبك معهم وقتها في مناوشات عسكرية مكشوفة، وذلك للسبب التالي:

حوى أحد الأديرة في أدرنة واحداً من الشخصيات الألمانية، وكان يعاني من مرض في جسده، وكان معه أمواله وتجهيزاته كلها، وقام بعض الرومان من وحدات الرجالة بنهبه، ثم أشعلوا النار في مقر اقامته، وبعد

أن دمروا على هذه الصورة الرجل، استولوا على بضائعه جميعاً، وما ان وصل الخبر إلى مسامع فرديريك، ابن أخي كونراد، وهو رجل لا يمكن السيطرة على انفعالاته، وكان بالفعل يتسم بالوقاحة، بسبب غضبه المفرط، فلقد عاد سريعاً، وبات بذلك عليه امضاء يومين على الطريق للحاق بكونراد، لقد عاد مسرعاً إلى أدرنة، وأحرق الدير حيث هلك الألماني من قبل، وبذلك أوجد بهذه المناسبة فرصة الحرب للرومان ولهم أنفسهم، وعلى هذا الأساس جاء بروسوك للسيطرة على الموقف، وصد فرديريك وطرده وأوقع مذبحه كبيرة بين البرابرة، وكان فرديريك هذا هو الذي تولى حكم الألمان بعد كونراد، للسبب الذي سأحكيه في الرواية التالية (٥٣)، وتخلي الألمان منذ ذلك الوقت عن تبجحهم السالف، وذلك بعدما تعرفوا إلى مقدرة الرومان بالفعل.

١٤- وبينما كان هذا يحدث هناك، فإن أندرونيكوس، الذي كانوا يدعونه أوبوس، والذي كان الامبراطور قد بعث به لهذا الغرض، ذكرهم بأيامهم، وغالباً ما أوضح لهم الذي تعهدوا به من قبل بعدم الحاق أي أذى بالرومان، ولامهم لغدرهم، ونصحهم، انهم إذا ما أرادوا تفادي الوقوع بالخطر، فما عليهم سوى متابعة السير إلى العبارات عند أيديوس [جنق قلعة] والجواز من هناك، وبعدها كرر قول هذا وردده، وكان غير قادر على اقناعهم، عاد أندرونيكوس مخفياً إلى بيزنطة.

واجتمع الألمان للتشاور، ولتقدير الأمر المعروف أمامهم، وعندما بدا لهم أن الصواب بالتمسك بالطريق إلى بيزنطة، انطلقوا نحو الأمام، وساروا على طريقهم، وكانوا ثانية ليسوا أقل وقاحة وتبجحاً، حتى بعد هزيمتهم، فقد ذبحوا الماشية دونما رحمة، وقتلوا كثيراً من الرومان الذين قاوموهم، ومع ذلك فإن الحرب المكشوفة لم تتطور.

وعندما علم الامبراطور بهذا، قرر بأن عليه هو نفسه القيام

بالاستعدادات، وهكذا شحنت القسطنطينية على الفور بالعساكر، التي قام بعضها بالعسكرة أمام الأسوار، واتخذ آخرون مواقفهم داخل الأبواب، وبعث بيانسيل الذي يكنيه قومه زيكاندلس (٥٤) Tzikandyles الذي كان قد حقق مجداً في كثير من الحروب في المناطق الواقعة عند مشرق الشمس، وفي القتال هناك مع البرابرة، وكان هو ومعه بروسوك السالف الذكر من أصل تركي، ولكنه كان واحداً من حظي بالتربية الرومانية والتعليم، ووقف منتظراً مع قواته عند مكان اسمه لونغيو Longoi ، وأمرهم أن يبذلوا قصارى جهدهم في ردع الألمان إذا ما حاولوا مجدداً الشروع بأعمال عنف جائرة.

ولدى وصولهم إلى تلك البقعة، تعرفوا إلى أرقام الألمان، واستطلعوا بدقة كيف كانت تشكيلاتهم، وفيما إذا كانت في فوضى أو في انتظام، وكان مما لاحظوه أن بنيتهم الجسدية كانت مفرطة الضخامة، ومغطة تماماً بالسوابع، لكن خيالتهم لم تكن خفيفة الحركة وسريعة أبداً، ولاحظوا أيضاً أنهم يمارسون فوضى عظيمة أثناء الزحف، وافترضوا أن قوتهم لهذا سوف تكون من السهل التغلب عليها من قبل الرومان، الذين يقاتلون بشكل علمي، وبعثوا إلى الامبراطور، بتقدير حوى هذه الأشياء، وسألوه ما الذي ينبغي صنعه، وكان حتى الآن ما يزال حذراً بشأن الغرض الظاهري للبرابرة، وأعني حملتهم المزعومة إلى فلسطين، ولهذا تمنع عن القيام باجراء ضدهم، وآثر الانتظار حتى يقدموا على القيام مجدداً بمزيد من محاولات العنف، وهكذا تمسك الامبراطور بهذا القرار.

واستمر البرابرة بالسير على طريقهم، وعندما زحفوا في السهول القائمة قرب كيوروباكيو (٥٥) Chirobacihoi (لأن المنطقة هناك واسعة الامتداد، وتوفر بشكل خاص كثيراً من الأعشاب لرعاية الخيول) عسكروا هناك، وقد حلت بهم كارثة هناك بالتأكيد تفوق الوصف،

يمكن أن يستخلص منها بشكل منطقي أن الرب كان غاضباً عليهم، لأنهم أفسدوا أيماهم وزيفوها، ومارسوا كثيراً من الأعمال اللاانسانية نحو أناس يدينون بالدين نفسه، ولم يقترفوا بحقهم أي خطأ، فحينها هبت عاصفة غير متوقعة، فاض النهران اللذان يمران بذلك المكان، وكان أولهما يعرف بين السكان المحليين باسم ميلاس Melas (قراسو) وثانيهما باسم أثيراس Athyras ، ولقد ازدادت مياهها بشكل تخطى بعيداً المستوى المعتاد، وغمرت الجزء الأكبر من السهل، وجرفت المياه شطراً كبيراً من الجيش الألماني بخيولهم وسلاحهم، واقتحمت المياه الخيم نفسها، وجرفت أمامها من البر إلى البحر.

وعندما علم الامبراطور بهذا تحركت نفسه اشفاقاً على الرجال، وبعث بعدد من الأعيان إلى كونراد لمواساته بسبب النكبة التي حلت به، ودعوته للمشاركة في مباحثات وخطط تخص مسائل هامة، وكان كونراد ما يزال حتى الآن غير راغب بالتخلي عن كبريائه، وطالب أن يقابله الامبراطور عندما يقترب من بينزطة، وقدّر أن محادثاته جديدة بمثل هذا الاهتمام، ولدى ادراك الامبراطور أن غروره لاحد له، تركه وشأنه يخلد إلى الراحة، وسارع كونراد ومعه جميع قواته، إلى بينزطة، وعندما وصل إلى المقر الامبراطوري مقابل الأسوار، والذي يدعوه الناس فيلوباشن Philopation ، ولأدري هل الاشارة بهذه التسمية إلى لطافة المكان، (لأنه يوفر الراحة والاسترخاء من المتاعب للذين يهربون إلى هناك فراراً من صخب المدينة) أو لأن أشجاره وارفة الظلال، وأرضه تنتج نباتات خضراء غنية (وكان المكان واسعاً جداً، ويحمل من كل جانب مظهر الخضار) (٥٦)، ومن هناك أولى كونراد انتباهه إلى أسوار المدينة، وعندما رأى الأبراج المرتفعة إلى علو شاهق، وأبصر الحجم الكبير للخندق العميق الذي يحيط بها، أصيب بالذهول، وعندما رأى حشداً من النساء والسكان يقفون بدون سلاح وبدون عمل، على الأبنية

الخارجية، (لأن جميع الذين كانوا يستخدمون في الأعمال العسكرية الصعبة، وقف بعضهم للحراسة فوق الأسوار الداخلية، ووقف الباقيون أمام تحصينات المدينة، ينتظرون شروع الألمان بالقتال)، وعندما لاحظ هذه الأشياء، قرر على الفور أن المدينة ما برحت منيعة الجانب لفرط قوتها، التي كانت حقيقية، ولهذا انطلق من هناك بسرعة، وعبر الجسر، الذي يقوم على كتفي ما يمكن للمرء أن يدعوه وصلة النهر البحري [القرن الذهبي] ووصل إلى واحد من الأرباض المواجهة لبيزنطة، التي كانت تدعى بيكريديون Pikridion [هاسكوي] (٥٧)، ويقوم هناك المجاز الطبيعي المعقول، ويكوّن بحريوكسين Euxine [البحر الأسود] هناك خلفية من المياه، وذلك بدورانه إلى اليمين، في حين أن مساره نحو الغرب يشكل ميناء واسعاً للبيزنطيين، وهنا يتكوّن نهر يندفع في بعض الأمكنة عالياً ويجري بين السهول هناك، ثم يصل إلى رأس الميناء على مسافة قليلة من بيزنطة، ثم إلى المكان الذي يقوم عليه الجسر.

١٥- هكذا كان الحال هناك، وعندما وصل كونراد إلى هناك بعث برسالة إلى الامبراطور، لم تكن في الحقيقة بعيدة عن الغرور، وجرى سياقها على النحو التالي:

«يتوجب على الامبراطور المتملك للذكاء، ألا يتفحص المشكلة في ذاتها، بل عليه أن يبحث في السبب الذي صدرت عنه، وكل من يعتمد على الأحكام المسبقة غالباً ما يخفق في اصلاح ما هو جيد، ولا يلوم بالطبع ما يبدو أنه دنيء، وعلى عكس الرأي الرائج، يقابل الانسان أحيانا ببعض الترحاب من قبل الأعداء، غير أنه قد يعاني مجدداً من بعض سوء المعاملة من الأصدقاء، لاتعزو إلينا أسباب المضار التي أنزلت بأرضك من قبل بعض العامة في جيشنا، ولاتغضب لهذا السبب، حيث أننا أنفسنا لم نسبب مثل هذه الأشياء، لكن الغوغاء كانوا قادرين على فعل

ذلك بارادتهم وهم مندفعون بلاضبط وراء شهواتهم، ثم إنه عندما يكون هناك جيشاً أجنبياً خارج بلاده يطوف ويتجول في كل مكان، جزئياً لاستطلاع الأرض، وجزئياً لجمع الحاجيات الضرورية، وقتها ليس من غير المعقول حدوث مثل هذه الأضرار على كل يد». هكذا قال الألمان.

أما الامبراطور الذي نظر إلى المسألة بشيء من الاستخفاف فأجاب كما يلي:

«لم يكن بعيداً عن ادراك امبراطوريتنا مسألة أن أهواء العامة يصعب دوماً التحكم بها وقيادتها، وفي الحقيقة إن ماكان موضع اهتمامنا هو وجوب جوازكم أنتم أيها الأجانب الغرباء لمملكتنا دون أذى، ودون شكوى، أو بالحقيقة دون أن تعانوا أي أذى من قبلنا، خشية أن نكسب سمعة سيئة بين الناس بالتصرف بما هو مضاد لكرم الضيافة، وعلى كل حال، بما أن مثل هذه الأشياء واضح انها لا تستحق الملامة بالنسبة لك، ونظراً لأنك بارع جداً، وعظيم المهارة في البحث في طبيعة الأشياء على الوجه الصحيح، فنحن مدينون لك بالشكر، ذلك أننا سوف لن ننظر من الآن فصاعداً بكيفية وجوب كبح جماح العامة من شعبنا واندفاعها ضدكم، بل سوف نعزو ذلك إلى حماقة الغوغاء، طبقاً لما تعطفنا ووجهتنا إليه، وعليه لن يكون من الآن فصاعداً نافعاً بالنسبة لك أن تأخذ الطريق مع الجيش بشكل جماعي، ولا التجول أيضاً في أرض أجنبية، وبالنظر إلى أن العامة مسموح لها بممارسة أهوائها في كل جانب، لأن ذلك صواب كما تقرره، لا بد أن الأجانب سيكونون عرضة للمعاناة من السكان المحليين». بمثل هذه الأقوال أعاد الامبراطور الرسل.

ولمعرفة الامبراطور أن الجيش الروماني كان أقل عدداً من البرابرة، لكنه كان مكافئاً بالتفوق بالعلوم العسكرية والثبات في القتال، فقد خطط كما يلي:

أمر بروسوك وباسيل زيكاندلس مع عدد آخر من القادة الرومان، أن يقودوا قوة كافية، وأن يتخذوا مواقع تواجه الألمان، وقد اصطفوا كما يلي: وقف الجزء الأقل دربة من الجيش مع العوام بعيداً إلى الأمام، على شكل أربع فرق، وجاء بعدهم الجند الأفضل تسليحاً والدارعين، ثم الذين امتطوا خيولاً سريعة، ووقف أخيراً خلف خط المعركة الكومان مع الترك وقوات النبالة الرومان، وعمل الرومان على هذه الصورة، حيث أنه ما ان رأى الألمان هذا حتى استولت عليهم شدة الرغبة والفوضى، وزحفوا مسرعين، وأعقب ذلك معركة حادة، ووقع قتلى كثيرين الألمان، ذلك أن الرومان قاوموهم بكفاية وقتلوهم.

وبقي كونراد متغطرساً، ذلك انه لم يكن عالماً بما حدث، وكان مقوداً بآمال عظيمة، ورغب الامبراطور بالسخرية من رعونته السالفة، فكتب إليه مايلي:

«يتوجب علينا أن ندرك تمام الادراك، أن الفرس الذي لايحتمل اللجام لايفيد راكبه، لابل حتى ربما لن يحملة فوق منحدر صخري، وهذا الجيش الذي أخفق في الاصغاء إلى أمره، غالباً مايورط قيادته في المهالك، وعلى هؤلاء القادة عدم السماح لقواتهم بالسير حسب أهوائها، غير انني لأعرف ماالذي اعتراك من الأم، فلقد ازدرت هذا وأقنعت جلالتنا بذلك، ولقد كانت تعاملك معاملة الصديق، ولتبقى محافظاً على موقفك نفسه، قدّر الآن إلى أين قادتك السماح للغوغاء من مصاعب، ذلك انني عرفت أن قطعة صغيرة جداً من الجيش الروماني هي التي تصدت لأعداد هائلة من الألمان وعاملتهم بكل قسوة ورجولة، والقاعدة هي أن الجيش الوطني والمحلي يكون متفوقاً على الغرباء الأجانب، وإذا لم يكن لدينا رغبة في معاقبة العامة لعدم التزامها، كيف يمكننا ذلك؟ لقد سمحنا لهم باستئصالهم تماماً واستئصال عنفهم، لكن إذا ماارتأيت، أن علينا معاً كبح كلا الجانبين بمكبح رسمي، وأن نوقف نزوات الجند

نفع، أما إذا كان هذا لا يروق لك، فدع الأمور تبقى على ما هي عليه الحال في الوقت الحاضر، وبناء عليه يبين لنا بوضوح ما الذي ينبغي صنعه».

١٦- لقد ختمت كلمات الامبراطور على هذه الصورة، وبما أن كونراد لم يكن قد سمع بعد بما حلّ بالألمان، لم ير من المناسب الاهتمام بأي شيء من هذا، هو بالحري طلب أن ترسل إليه السفن الامبراطورية الحربية مع العبارات المعتادة، وأن يتولى ذلك الامبراطور، وذلك بغية استخدامها بالجواز، وهدد انها إذا لم تصل إليه بسرعة، سيطوق المدينة في اليوم التالي بألاف مؤلفة، وأغضب هذا الامبراطور، ومع ذلك كان ما يزال غير راغب بالرد على هذا المتبجح، فتصبر إلى حد اللطف المصطنع، ولهذا كتب إليه وهاجمه بكلمات قاسية كما يلي:

«بالنسبة للذين هم قادرين على فحص الأمور بدقة لا يحكم بالعادة على الأمور بالكم بل بالكيف، وبوساطة التفوق وسد الخلل، وبناء عليه ينبغي على المرء ألا يميز بين المتصارعين في الحرب بناء على العدد، بل بوساطة التفوق والممارسة والبراعة هناك، ولئن كان الجيش الذي يتبعك جيشاً كبيراً، إنه لا يتفوق على الجيش الوطني إلا قليلاً، وصحيح أن الجزء الأعظم من الجيش المحلي مقسم وموزع بين أجزاء كثيرة من المملكة الرومانية، فإن الأصح أيضاً أن قوات كونراد قطع من الدهماء، وأعداد كبيرة من غير العسكريين، هل يعتد بقطع من الأغنام، تزهب بعشرات ألوفها، إذا ما صادفت أسداً واحداً متوثباً عليها تتبعثر، أولست غير مدرك أنك مثل عصفور تحت سلطتنا؟ أولسنا إذا ما رغبتنا، فإنك ستهلك مباشرة؟ خذ بعين التقدير أن الذين يمتلكون هذه البلاد هم الذين جاب أجدادهم بأسلحتهم جميع أنحاء الأرض، وأصبحوا سادة عليكم أنفسكم وعلى كل عرق آخر تحت الشمس، وقدروا أيضاً أنكم لن تعلق متن السفينة الامبراطورية، ولن تنفذوا بيننا ما تسعون إليه، لكن أرجل

خيولكم سوف تحملكم عائدين على الطريق نفسه، ويجب ألا تلوّمونا إذا ما جعلنا من أنفسنا غير لطفاء جداً مع الذين رغبوا باقتراف الاثم والعدوان، لأن اقتراف الاثم والعدوان ليس مثل الأخذ بالثأر والانتقام، فالأول يصدر عن تقدير خاطيء، بينما يقود الحذر إلى الآخر، ويعطينا تملكنا الماضي الحق باستحواذ أي أرض سوف تسترد من الأتراك المجاورين، وفي الحقيقة سوف يملك الرومان هذه الأراضي بدون صعوبة، والذي لم نستطع تحمله هو مطالبة شعبنا [بمقاتلة الألمان]، ومع هذا سنجازف الآن بالعمل فوراً بالذي تحثنا على عمله».

وعندما سمع كونراد بهذا، وعلم بالوقت نفسه بالبلايا التي نزلت مؤخراً بالألمان، اعتلى ظهر عبارة بائسة كانت مربوطة هناك على الشاطيء، وجاز مضيق داماليس (٥٨) Damalis ، وبسرعة وصل إلى الشاطيء المقابل، ذلك أن واحداً من البرابرة المعاندين قاد الرجل وأرشده، ومع أن البربري يتباهى ويتفاخر بلا حدود في حالات الرخاء، لكنه يتواضع ويتذلل في حالات النكبة أكثر من اللازم، فقد فكر الامبراطور في اذلاله أكثر، ففعل ماييلي: لقد أرسل عدداً من الرومان إلى ساقه الجيش الألماني، فأفسدوا بالرشوة عدداً لا يحصى من أعيانه ليسحبوا ولاءهم لكونراد.

وما ان لاحظ كونراد هذا، لم يعد كما كان من قبل الرجل الفائق المهارة، فكتب إلى الامبراطور يسأله أن يبعث إليه بواحد من الرومان ليقوده على الطريق، ويوجهه بأمان، وجرى ارسال الذي كان يشغل وظيفة أكولاوثوس (٥٩) Akolouthos ، ووجه للبحث في اقامة حلف مع كونراد، وبعدما دخل الرومان والألمان في نقاش طويل، توجب على كونراد الموافقة على اقامة تحالف مع الامبراطور، لكن مقابل ثمن كبير جداً، إذا ما توجب عليه الانضمام إلى الامبراطور في القتال ضد الأتراك، وأخبر ستيفن (الأكولاوثوس) كونراد أن أمامه طريقتين، والذي

عليه هو أن يختار أيهما ليتابع سيره عليه، وبعدهما تشاور كونراد مع أتباعه، رفض التحالف واختار الطريق الذي يقود إلى فيلوميلون.

وسار الألمان حتى وصلوا إلى ميلانغيا Melangeia ودوريليون Dorylaion [اسكي شهراً] ولم يعق سبيلهم عائق مزعج، وعندما وصلوا إلى هناك هاجم تركي اسمه ممبلينز (٦٠) Mamplanes مع قوة صغيرة، مقدمة جيشهم، ليختبر قوتهم وليعلم أي نوع من النظام يتبعون، وعندما ظهر أمامهم للوهلة الأولى، زحف الألمان بشكل فوضوي، واستبد بهم حماس شديد وفوضى، واندفعوا نحوهم، وبما أن الألمان لم يكونوا بعيدين كثيراً عن معسكرهم، أدار الأتراك ظهورهم وتظاهروا بالفرار، وعندما أصاب الانهك الفرسان الألمان، وباتوا بعيدين عن المعسكر، قام الأتراك بهجمات سريعة وقتلوا الخيول والرجال، وتكرر حدوث هذا الشيء نفسه مراراً، وألقى برعب لاحدود له في قلوب الألمان، وبات من الممكن آنذاك ملاحظة أولئك الذين كانوا مفرطين من قبل في الغرور، كيف أنهم عندما هوجوا بأسلوب وحشي لا يمكن مقاومته، قد باتوا عاجزين بجبن وضعة عن فعل أي شيء أو التخطيط له، ثم إن كونراد (وكان شجاعاً في الحرب) اندفع ضد الأتراك، ففقد بشكل خاص الخيول السريعة التي أهداها له الامبراطور، وكاد نفسه أن يقع أسيراً في أيدي هؤلاء البرابرة.

١٧- وبينما كان الألمان في هذه الضائقة، كان [لويس السابع] ملك الفرنسيين (حسبما جاء بالتقارير قد عبر الدانوب وتقدم أكثر) قد عزم على ألا يصبح بالضرورة وقحاً مثل كونراد، فقد رحب باللذين قدما إليه من عند الامبراطور، وأقصد بذلك السيئاتوس ميخائيل باليولوغوس، وميخائيل الذي كنيته براناس وبها يدعى، ووعد بحسن السلوك مع الامبراطور، ولو حظ انه لم يلحق أي أذى بالرومان منذ ذلك الحين، ولأستطيع القول فيما إذا كان قد تلقى درساً مما أصاب كونراد من سوء

حظ، أم ان أخلاق الرجل كانت بشكل طبيعي هكذا! ولهذا أنهى حديثه مع الرسولين معبراً عن بهجته للاستقبال العظيم من جانب الامبراطور، وعندما بات قريباً من بيزنطة، أرسل رسلاً إلى الامبراطور واعدأ بمزيد من الصداقة، ووافق على التعاون معه في المسائل الهامة، وإذا كان من المفيد لهما الالتقاء مع بعضهما والاشترك في بحث في القصر، لم يرغب في اهمال ذلك، وأصغى الامبراطور باهتمام إلى هذه الرسائل، ووجهه للقدوم مطمئناً.

ولدى وصوله، استقبله هناك رجال يمتون بصلة القرابة إلى الامبراطور وبالمكانة، وكانوا يحتلون وقتها أهم المناصب، وكان عليهم اصطحابه إلى الامبراطور في أهبة، ومنحه التشریف اللائق به، وعندما بات في داخل القصر، كان الامبراطور جالساً على عرش مرتفع، وقدم للويس مقعداً منخفضاً، وهو الذي يسميه الناطقون باللاتينية كرسيّاً، وبعدهما جلس عليه تكلم وسمع ماهو مناسب، ثم غادر إلى الربض خارج الأسوار، الذي تسميه العامة — كما قلنا — فيلوباشن، ليقيم هناك، وذهب بعد وقت قصير مع الامبراطور إلى قصر بلاشرين في جنوب المدينة (٦١)، ليتفحص هناك الأشياء الجديرية بالتفحص، وليشاهد الآثار المقدسة في الكنيسة هناك، وأعني بذلك الأشياء التي كانت متعلقة بجسد المسيح، والتي هي علامات حماية ربانية للمسيحيين، وبعدهما أنجز هذا كله في بيزنطة وأعطى العهود بالأيمان أن يكون صديقاً للامبراطور وحليفاً مادام حياً، عبره بدوره إلى آسيا (٦٢).

١٨- لقد كان هذا ما حصل، وقام الامبراطور بترقية شخص اسمه نيقولا وكنيته موزالون Mouzalon إلى عرش البطيركية (٦٣)، وكان منتمياً من قبل إلى النظام الرهباني، لكنه بعدما تسلّم عرش الكنيسة القبرصية، استقال عن طواعية منها، لكنه ما ان تولى الادارة حتى انفتح كل فم ضده، وادعوا انه اعتلى العرش بشكل غير شرعي،

بسبب أنه تخلى من قبل عن الرهينة وعن الكنيسة المعينة له، وكان في البداية عنيداً وغير راغب بالتخلي عن العرش، لكن ما إن اتخذ الإمبراطور قراراً حول المسألة، حتى أدرك [موزالون] أنه اختار الجانب الخاسر، ودون أن ينتظر فحصه ثانية، تخلى عن العرش، وتابع العيش بمثابة فرد عادي، وعين مكانه ثيودوتوس Theodotos ، الذي كان عميق الخبرة في النظام الصوفي (٦٤).

وكما ذكرنا من قبل، كان الألمان قد هزموا مراراً من قبل الأتراك، وفقدوا كثيراً من رجالهم، وما إن تخلوا عن المرور خلال فيلوميلون، حتى سارعوا بالعودة، ولدى وصولهم إلى نيقية [إزنيق] التقوا هناك بالفرنسيين الذين كانوا سائرين على الطريق، والتقوا أيضاً بالملكين الآخرين اللذين كانا قد أحضرا معها قواتاً كبيرة:

وكان واحد منهما يحكم أمة التشيك، وكان فيما يبدو، قد عين ملكاً من قبل كونراد، وكان الآخر ملك البوليسيين، الذين كانوا شعباً سكيثيا Scythie ، وقطنوا إلى جانب الهنغار الغربيين (٦٥).

وعندما اتحد الجيشان معاً، تردد بشكل مكشوف كلمة عابرة اعتاد الفرنسيون على استخدامها وتلفظها واطلاقها على الألمان، ومعناها شيء يشبه «الفقاعة الألمانية» (٦٦)، ولما كان لهذا الشيء أصله الصادر عنه، فسأبين ذلك على الفور:

إن أسلوب هاتين الأمتين في القتال ليس نفسه، فالفرنسيون قادرون بشكل خاص على امتطاء ظهور الخيل في نظام جيد، والقتال بالرمح، وحيالتهم متفوقة على الألمان بالسرعة، والألمان — على كل حال — أقدر على القتال على الأقدام وأفضل من الفرنسيين، وهم ممتازون في استعمال السيف الكبير، ولذلك عندما كان الألمان يقومون بحملات عسكرية ضد الفرنسيين، فإنهم كانوا يرتابون بقدرة حيالتهم، ويصرّون على خوض

الحرب على الأقدام، وكان الفرنسيون يواجهون خيالتهم غير المنتظمة ويهزمون، وبعدها كانوا يطاردون القسم الأكثر خبرة من الألمان، كانوا يعودون بالكرة على الذين يسيرون على الأقدام، ومع انهم كانوا أقل منهم كثيراً بالعدد، كانوا يسخرون منهم بالعبارة السالفة الذكر، لأنهم في الوقت الذي من الممكن لهم فيه القتال مع الخيول كانوا يختارون الحرب على الأقدام، وكما قلنا تكرر اطلاق ذلك من قبل الفرنسيين على الألمان، مما أغضبهم كثيراً.

وبناء عليه، وبسبب أن المخاطرة في أخذ المركز الثاني بعد الفرنسيين على الطريق كانت تهددهم، فإنهم ساروا معاً (٦٧) حتى فيلادلفيا، وعندما لم يعد كونراد قادراً على تحمل السخريّة منه من قبل الفرنسيين، قرر العودة، فكتب إلى الامبراطور وكشف له عن خطته، ولما كان مانويل يرغب في انفصال الملكين عن بعضهما بعضاً، ولتعاطفه مع الرجل، أجابه بما يلي:

«ينظر الرجال الذين يدعون أنهم ازدادوا حكمة بالعادة إلى المسائل، ليس وفقاً لدورة الحظ، بل على انفراد، بعيداً عن التبدلات المفاجئة، ولهذا عندما كنت موفّقاً محظوظاً، قررنا عدم معاملتك فوق قدرك وقيمتك، والآن بما أنك في حالة بائسة جداً، إننا لن نتردد بالترحاب بك عائداً مع الأشياء نفسها التي كنا متشوقين للقيام بها على شرف قريب، وحاكم لأمم كثيرة، ولنتشاور معاً تجاه الأوضاع الحاضرة، على أساس الأسباب المذكورة، وكذلك لأننا ندين بدين واحد، وبالنسبة لك لأدري كيف استهترت، ونظرت بقليل من الأهمية نحو ما كان يمكن أن يكون مفيداً لك، واخترت شيئاً أقل فائدة، لكن طالما انه من غير الممكن تغيير ما قد حدث، تعال إلينا بدون ابطاء، ودعنا نفكر، على الوجه الأفضل، ما الذي بقي ممكناً لنا، وما الذي لم نخسره حتى الآن، للحظ ميزة التغير المستمر، وهو لم يقف قط جامداً، فإذا ما جنى أحدهم في البداية شيئاً،

من الممكن له أن يمتلك الكل، لكن ماهلك في الماضي، من غير الممكن إعادة ثانية، ومادامت أمورك ممكن اصلاحها بطريقة ما، أسرع للامساك بها هو سيكون مفيداً لك».

١٩- على هذه الصورة انتهت الرسالة. وكان كونراد قد أدرك من قبل حماقته، ولكن بما أنه لم يعرف ما الذي ينبغي فعله، تبع بدون ارادته الفرنسيين، ولدى وصول رسالة الامبراطور إليه، آمن أن هذا الحدث جزء من الحظ، فتقبل نصائحه بالسرور وعاد مسرعاً، ولدى وصوله إلى الهالسهوننت، جاز إلى تراقيا بالعبارة من هناك، وقابل الامبراطور الذي كان مقيماً هناك، وعاد إلى بيزنطة معه [شتاء ١١٤٧-١١٤٨]، وتتابع هناك أعمال التسلية الواحد تلو الآخر: مساكن امبراطورية، ومشاهد متنوعة، وسباق خيل، واستقبالات فخمة، وبذلك زال ارهاقه الجسدي ونقه.

وبعدما زود بما يكفي من المال، انطلق إلى فلسطين مع عدد من السفن الحربية، وقاد سفينته نففور داسيوتس Dasiotes ، وأمن بقية الخدمات، والتقى هناك ببقية الملوك، وأدى طقوسه المطلوبة عند ضريح المسيح المانح للحياة، وبينما انطلق الآخرون كل منهم نحو وطنه بخير ما يمكن، رحل هو من هناك مع السفن المشار إليها، ورسا عند سالونيك، ورأى الامبراطور هناك للمرة الثانية، واشترك مجدداً معه في مناقشات ومحادثات، وذكره الامبراطور بما جرى الاتفاق عليه من قبل، وكان هذا قد قضى بأن تعود ايطاليا [أي أبوليا وكالبريا] إلى الامبراطورة [بيرثا] ايرين، لتكون هدية زواجها [بأثنة] لأنها كانت قريبة [كونراد] وهو الذي خطبها إلى الامبراطور، وبعدما وثق هو وفرديك اتفاقهما بالأيمان الاضافية، غادرا الأراضي الرومانية، ذلك أن أعمال كونراد واجهت نهايتها هناك [شتاء ١١٤٨-١١٤٩] (٦٨).

ووقع شيء — كما يلي — للملك الفرنسي أثناء عودته من فلسطين [١١٤٩] مع سفن رست هناك بأعداد كبيرة، فقد عرض للنقل بالأجرة إلى أوروبا لأشخاص رغبوا بذلك، وكانت هناك سفن صقلية طافية على وجه الماء في تلك الجوار، وكانت هذه السفن قد قامت من قبل بالاعارة على الأراضي الرومانية، وكان هناك أسطول روماني يقوده كوروب Chouroup ، قد قابل هذه السفن وقام بمهاجمتها، وبينما الأسطولان يتحاربان، حدث أن أبحرت سفينة الملك إلى وسطها، ولما كان الرومان متفوقين بالقتال، كاد الملك أن يقع بالأسر، للسبب التالي:

كان عندما — كما ذكرنا — التقى بالسفن الصقلية، نزل من سفينته، وصعد إلى ظهر مركب صقلي، ولولا أنه عندما شعر بالخطر، تم رفع علم واحد من حلفاء الرومان، لكان سقط سريعاً في أيدي القوات الرومانية، وبعدها فقد عدداً كبيراً من أتباعه الذين أصبحوا ضحايا الحرب، جرى انقاذه نفسه بصعوبة، وما ان قام بتقديم شكوى إلى الامبراطور، حتى كسب حرية الأسرى، واستعاد كل ما كان قد أخذ منه، وعلى هذه الصورة انتهى تدخل الأمم الغربية في الأراضي الرومانية (٦٩).

٢٠- وبعد عودة كونراد إلى بلاده ما لبثت أن وافته منيته، وذلك دون اكمال انجاز أي شيء مما وعد به الامبراطور، ووصل إلى السلطة بعده فردريك (٧٠)، لكن لماذا آلت مملكة كونراد الألمانية إلى فردريك، سنقدم الرواية التالية:

قام الملك الألماني هنري [الخامس] بسجن أبيه [هنري الرابع] وهو على قيد الحياة، وهو الذي أشعل الحرب مع أسقف روما [البابا باسكال الثاني]، وهو أيضاً استولى على الملك بشكل غير شرعي، ولهذا السبب انتقم الألمان منه، عندما مات، حيث قرروا عدم منح السلطة لأولاده، (كان أولاده كونراد هذا ووالد فردريك) (٧١)، بل استدعوا إلى السلطة

رجلاً عجوزاً هو لوثر (٧٢) [الثاني]، ومنحوه السيادة على الألمان، ولكن بما أن الآخرين [كونراد وفرديريك الأكبر] لم يستطيعا تحمل حرمانها من ملكهما الموروث، قررا محاولة الثورة، وعندما عرف لوثر بهذا، وكان بالحقيقة عجوزاً، ومتقدماً بالسن كثيراً، كما كان يمتلك طبيعة نبيلة، ولا يعرف كيف يتكلم ويعمل إلا ببساطة، وافق على نقل الملك منه لهما عندما يتوفى، وإثر وفاته، آل الملك الموروث إلى أسن الأخوين، وأعني به والد فرديريك، مع ذلك بما أنه كان مصاباً بالجرح في إحدى عينيه، فقد اختار أخاه كونراد عوضاً عنه، ووافق كونراد في البداية، بعدما أقسم، أنه عندما توفيه المنية سينقل السلطة إلى فرديريك الأصغر، لذلك عندما كان — كما ذكرنا — على فراش الموت، وضع التاج على رأس فرديريك، ومضت هذه الأمور على هذه الصورة تقريباً، وإثر ذلك كانت بداية الحروب الصقلية.